

أحمد بركات

حوار بين

طفل ساذج وقط متقف

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

أحمد بهجت

حوار بين طفل ساذج
وقط مثقف

رسوم حسين أبو زيد

الطبعة الأولى

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر: مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ - تلکس ٩٢٠٠١ يوان

بسم الله الرحمن الرحيم

اهداء

الى القط الصغير الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
يمسح على رأسه وهو فى حجر أبى هريرة . .

أحمد بهجت

مقدمة

فى حياتى ثلاث قطط رئيسية . . وعشرات القطط الضالة التى شرفت بمعرفتها . . أول قط فى حياتى كان ذكرا أصفر اللون هادىء العينين . . سميته « هنى » . . على اسم العسل ، فقد كان لونه يشبه لون العسل الأصفر الذى يجىء من نحل تغذى على زهور البرتقال . . ومازلت حتى اليوم أعشق العسل إحياء لذكراه . . واليه يرجع سر حبى واحترامى للقط ، فقد علمنى هذا القط كثيرا من دروس الحياة ، وكان صديقا فى السراء والضراء . . وحين خرج يوما ولم يعد . . أدركت معنى الاغتراب فى الدنيا . . وفهمت منذ طفولتى لذع فراق من نحب .

القطعة الثانية فى حياتى كانت انثى ناصعة البياض . . لم أطلق عليها اسما . . فقد كانت تعيش فى جريدة الاهرام القديمة أيام كان مبنى الاهرام فى شارع مظلوم . . وسميتها « قطة الاهرام » . . والحقيقة انها كانت بطباعها الملكية وجمالها الفريد . . شيئا يصعب تسميته . .

جسدها كان أبيض وعيناها خضراوان . . فتخيل أنت مساحة بيضاء تطل منها روح خضراء . . وتصور هدوءها حين تجلس ثمانى ساعات على ذراع مقعدى . . لا تتحرك ولا تهز ذيلها لكى تدع لى

أعترف أن هذه القطط كانت تؤنس وجودى . . وكانت تمنحنى لحظات من التأمل والتفكير والسعادة يستحيل على أى ملك أن يشتري مثلها بذهب مملكته .

والقط فى نهاية الامر مخلوق من مخلوقات الله . . وليس فى خلق الله الا الاعجاز والجلال .

لعل القارىء يريد أن يعرف قصص كل قطه على حدة . . هذا صعب للغاية . . أولعل القارىء يشك فى أنه يقرأ سطورا لرجل مجنون . . ان العبارة الشائعة عن القطط انها حيوانات خائنة وغادرة .

أذكر أنى سألت قطتى « لؤلؤة » يوما عن حقيقة هذه العبارة فقالت - بلغتها الخاصة . .

- أطلق جنس الكلاب علينا هذه الشائعة . . لاتخون القطط الا اذا جاعت . . ولا تغدر الا اذا احست بالخوف وانعدام الامان . . لعل شك القارىء فى جنون الكاتب يزداد تأكدا . .

مهلا ياسيدى . . ولاتكن كزوجتى التى تحتقر القطط لأنها حيوان . . لو أنك مكتهل التجارب مثلى لعرفت أن العبرة فى الخلق ليست بكبر حجمه وعظم جرمه ، ولا بكونه انسانا أوحيوانا .

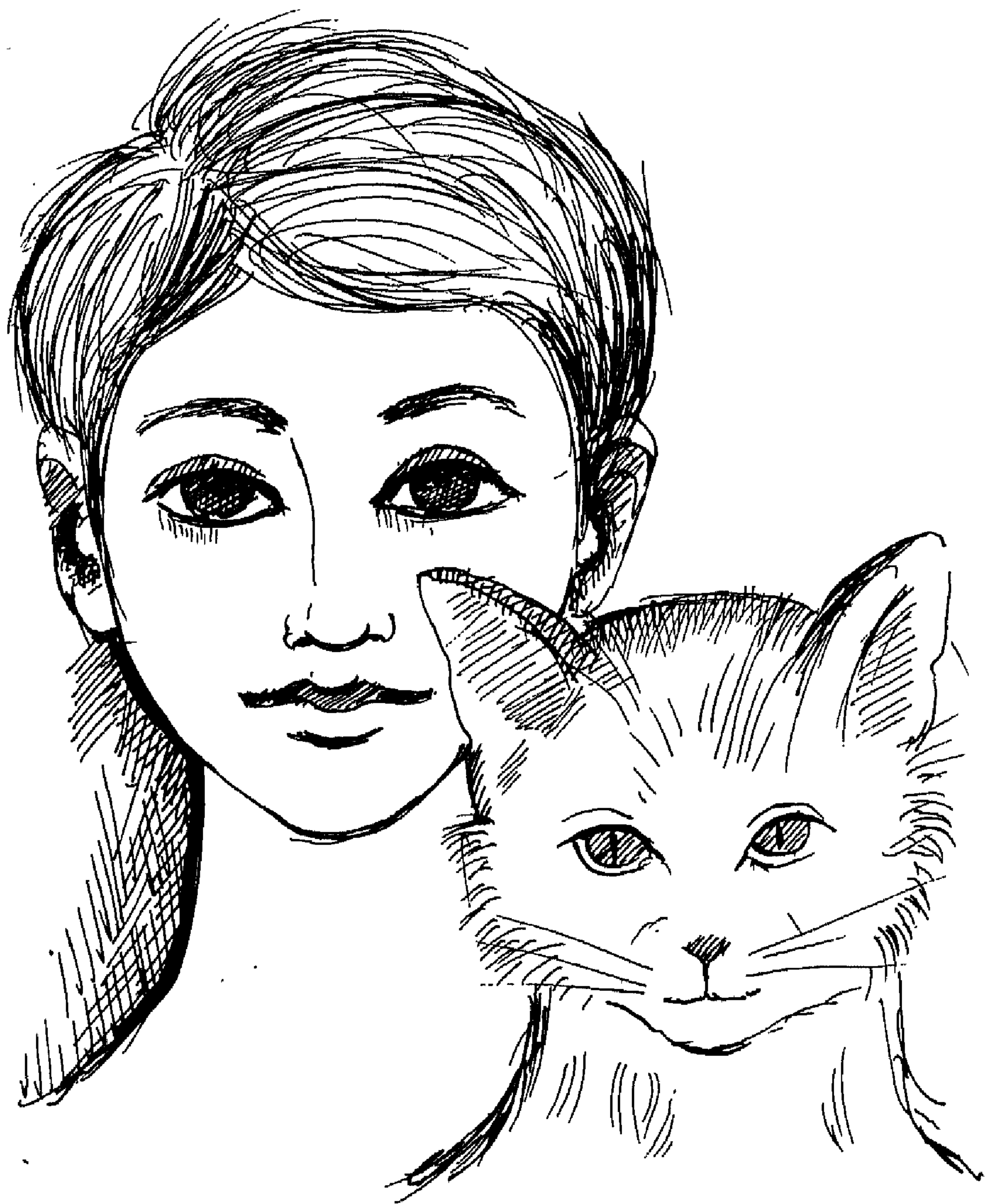
ورب انسان تنزل به تصرفاته الى مستوى أقل من مستوى الحجارة . . ورب حيوان صغير يرفعه تواضعه الى النجوم ، والله تبارك وتعالى يوحى إلى النحل ، ويسخر هدهداً ضعيفاً لكشف قضية خطيرة من قضايا الالحاد ، وعبادة الشمس ، ويوقف خيط العنكبوت فى الصراع أمام حديد السيوف .

لاتحتقر احدا لأن الله اختار أن يخلقه حيوانا . .

تعلم أن تتعلم من خلق الله . . .

ان الصورة ليست الا ظلا . .
ولا يعلم حقيقة الكنه والمعنى سوى الله . .
تواضع في نفسك واقرا كلماتي عن « القطط »
سأحدثك عن تجربة طفل ساذج مع قط مثقف . واذا راودك شك
في جنوني لانني اكتب عن القطط ، فأنت ياسيدي اشد جنونا لأنك
تقرأ ما أكتبه .

أحمد بهجت



فى سن العاشرة . .

كانت جميع المخلوقات التى تزيد عنى قليلا فى الطول ،
تعاملنى على أننى أقصر وأصغر وأقل .

واشتقت أن أعامل أحدا أقصر منى . . أردت أن أمارس
احساسى بالسيادة . . متصورا أن السيادة هى صدور التصرفات من
علو شاهق ، وبحث طويلا عن أقرب الأشياء الى الأرض ، معتقدا
أنها ستطيعنى مثلما أطيع من هم أطول منى . .

وتحرك على أرض دكان البقال قط أصفر « مبرقش »
بالبياض . . انحنيت عليه فتوقف عن السير . . التقطته من الأرض
وبدأت قصة صداقتى للقطط . .

قلت للقط : سأخذك معى الى البيت .

قال : أرأرأررر . .

قلت : ما معنى هذا .

قال : أقرأ فلا تشغلنى بالحديث حتى أنتهى

قلت : أحدثك وأنت تقرأ . . أى قلة ذوق .

قال : لاتتصور انك اشتريتنى لأنك ستأخذنى معك الى

البيت . . أنا قط ، ولكننى مخلوق حر تماما . . صغير ، ولكننى
لست عبداً لأحد .

نعست عيناه وهو يقول عبارته الاخيرة ، وغرس أظافره فى

صدرى فأحسست وخز مخالفه الطرية وازددت حنوا عليه . .

دخلت به بيت أبى وأمى فصرخت أمى .

- ماذا تحمل على صدرك .

قلت : قط من دكان البقال . .

صرخت أمى - القط أجرب ومريض وغدا يمرض البيت كله .



صرخت فى أمى أن القط سيبقى ولو أنطبقت السماء على الأرض . . ضربت الأرض بأقدامى وازددت تشبهاً بالقط . . نزل القلم على وجهى فازددت احتضانا للقط وانهمرت دموعى فوقه . . وكان القط التعيس يحمل فى جسده آلافاً من ذرات التراب ، واختلط الماء بالتراب فأضيف الى لونه الاصفر لون الطين . . وبدا مظهره كالحا نائسا شديداً الخوف .

ولست أعرف أى قوة ينطوى عليها الماء ، تراجعت أمى أمام دموعى وسمحت بأن يبيت القط فى البيت حتى الصباح ، بشرط أن يستحم . .

وافقت على الشرط القاسى ، وقاوم القط مقاومة يائسة . . وكلما نزل فوق جسده دش الماء الساخن كان يصرخ ويستنجد بكل قوى الأرض والسماء أن تنقذه . . ولم أفهم سر كراهيته للماء الا فيما بعد . .

ظل القط يرتعش بعد الحمام فترة طويلة ، ولففناه فى فوطة قديمة واعتبرت نفسى مسئولاً عن تدفئته .

قلت له وأنا أربت على جسده لأهدىء ارتعاشه

- لشد ماتكره النظافة .

قال القط - خطأ . . انتم وحوش . . لاتستحم القطط بالماء والصابون كالآدميين . .

قلت له : كيف تستحم القطط اذن ؟

قال : بلسانها . . تلحس نفسها بلسانها فيعود جسدها الى أصله من النظافة . .

قلت له : لماذا لم تلحس جسدك وتريحنا من المشقة ؟

قال : باطنى شديد البياض ولست فى حاجة الى نظافة
الظاهر . .

قلت له : مدهش . . تتكلم مثل الزاهدين ؟
قال : نحن فى نعمة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف .
قلت له : تتكلم مثل حكيم ، ولكننى لأفهمك !
قال : زاهد أو حكيم . . لأكن من أكون ، ولكن داخلى طفلا
من حقه أن يجوع مثلك .

بدأ يموء معبرا عن جوعه .
شرب ماوضعناه له من اللبن . وبدأ رحلة استكشافه للبيت .
كان يرفع رأسه ويتشمم الاثاث ، وينفذ من تحت الاقدام
ويسير ، يقطع الحجرة ، بالعرض ثم يعود الى قطعها بالطول . .
خيل الى أنه يقيس مساحة مملكته الجديدة . . غير أنه اختفى بعد
ساعة أو ساعتين من حلول الليل . .

عبثا بحثنا عنه تحت الاسرة أو الكراسى أو المناضد . .
ناديناه فلم يستجب . . وحين أرهقنا أنفسنا فى البحث عنه
تأكدنا أنه تسلل من الباب . وانتقل البحث عنه الى السلم . . فدكان
البقالة الذى ولد فيه . . وحين سقط الليل تماما كان القط قد تبخر مثل
سحابة صيف اذابتها الشمس وأيقنت بينى وبين نفسى أننى لن أراه مرة
أخرى . .

صعدت الى فراشى وسحبت على الغطاء وحاولت النوم .
فكرت فى القط الذى اختفى . .

قلت لنفسى أن أمى افزعته ، وإن الحمام أرهقه ، ولعل بيتنا لم
يعجبه ، أولعلنا لم نكرمه بما فيه الكفاية ، وتنازعنى الظنون حتى ثقل
رأسى وانزلت مع الغفو . .

بعد دقائق أحسست أن شيئاً يتنفس فى وجهى . .
فتحت عينى فوجدت القط نائماً على صدرى ، وهو يقرأ . .
أرر أرر أرر . .

كتمت فرحتى بالعثور عليه وهمست
- أين كنت أيها الشقى ؟

قال وهو يقرأ : صبرا حتى أنتهى من القراءة . .
سألت : ماذا تقرأ ؟
ولكنه لم يجب .

طالت قراءته وطال انتظارى له . . وكرهت أن أقاطعه مرة
ثانية . . وغلبنى النوم قبل أن أعرف منه أين كان . . أو ماذا كان
يقرأ ؟

ولست أعرف هل أفشى لى أسرارهِ وأنا نائم ، أو ظل على
صمته . .

استيقظت فى الصباح لأجده ينام على رقبتى . . وقد دفن رأسه
تحت ذقنى . . ومد يديه على الجزء الباقى من رقبتى . .
أنشأت أعبأه فأمسكت شواربه فاستيقظ غاضباً وبخ فى
وجهى .

قالت دهشة عيني : لماذا تبخ فى وجهى . . ألسنا أصدقاء . .
قالت تكشيرته : لقد أغضبتنى فلا تدعى البراءة . .
تساءلت حيرتى الطفلة : لماذا ؟ لقد كنت أَلْعَبُ !
قالت تكشيرته بحسم : هل تستطيع أن تمسك نمرا من شواربه
بحجة اللعب . .

- طبعاً لا . .

لماذا تتصور أننى أقل من النمر . . . اننى من عائلة النمر . . . إن
أخى الأكبر هو النمر .
- لكنك أصغر .

هل تتصور أن احترام النملة لنفسها أقل من احترام الفيل لنفسه . .
هل تسمح لمن يكبرك فى الحجم أن يضربك لأنك أصغر ؟
اقنعنى الشقى الصغير بلمحة واحدة من غضب عينيه . .
قلت وأنا أهرش تحت ذقنه : متأسف . . ولن أعود اليها . .
قال : هذا أفضل . . الاحترام بين الأصحاب أفضل . .

قفز من الفراش الى الارض وتمطى وتثاءب وشد جسمه ثم قفز
قفزة عالية فى الهواء وانطلق يجرى . . أدهشتنى تصرفاته قليلا . .
لعله يستعرض رشاقته أمامى . . قفزت من الفراش وراءه وبدأنا
نلعب . . كنا متقاربين فى السن . . لم يزل هو طفلا ولم أزل
طفلا . .

أى فرحة كانت تتمدد فى صدرى . .
أخيرا صار عندى شىء أملكه . .
صارى عندى أملاك تبدأ برأس القط وتنتهى بأخر خصلة من
شعر ذيله . .

هرعت الى الجيران . . واستدعيت أصدقائى . . وكنت أريهم
القط قائلا بفرح
□ القط بتاعى . .

وتضاربت فيه الآراء . . فمن قائل أنه لطيف ، ومن قائل أنه
ذكى . . وراحت كلمات الثناء تنهال عليه . . فكنت استقبلها بالنيابة
عنه معتبراً أنه ملكى . .

كان القط يحرك أذنه فى اتجاه الحوار . .

ورغم ذلك ، فقد ظل وجهه على تعبيره فلم يفصح عن حقيقة مشاعره . .

وباستثناء حركة أذنيه . . ظل القط لا مباليا بالحوار . .
قلت له ببراءة بعد أن انتهى حفل المجاملات
- اسعدك الشئ عليك

لم يرد . .

عدت أقول له

- ألسـت سعيدا لأننى أملكك

قال القط : ما أشد غرورك . . هل تتصور أنك تملكنى ؟
قلت له : أننى أحبك .

عاد يقول : هل تتصور أنك تملك من تحبه . .

قلت له : نعم

قال : خطأ . . أنت مغرور ومخطيء . . لست مملوكا

لك . .

انما أنا وأنت ممالك لمالك الملك . . ليس لأحد على نفسه

سوى حرية الارادة وحرية التصرف . .

قلت له : كنت أتصور أننى غنى لأننى أملكك . .

قال القط : لست مسؤولا عن تصوراتك الخاطئة . .

أنت تتصور أنك تملكنى . . وهذا يعنى أنك ستعاملنى

كشىء . . وأنت فى نفس الوقت تزعم أنك تخبنى .

كيف تحب مخلوقا متميز الكيان مستقل الارادة وتعامله

كشىء . .

ألا تحس ببعض التناقض . . إن أسرع الطرق لقتل الحب أن

تتصور أنك تملك من تحب . . ثم لاحظ شيئا آخر

انك لم تستأنسنى بعد . . كيف تحبنى قبل أن تستأنسنى . .
قلت : مامعنى أستأنسك .

قال : معناها أن تجلس فى كرسيك ، وأجلس أنا فى
الشمس . . ثم تنظر الىّ ، وأنظر اليك . . نتبادل النظر فى
صمت . . ستنطبع صورتك فى عدسة عيني ، وسيحدث لك نفس
مايحدث لى . . بعد ذلك سنتبادل كلمات قليلة . .
قلت : بعد ذلك أحملك بين ذراعى وأقبلك . . أمطر وجهك
بالقبلات . .

قال : - حانقا - ليس فى كل وقت . . لاتحب القطط هذا
الافراط فى اظهار المشاعر . . لست كلبا لأرقص لك عندما أراك . .
لاتحب القطط هذا الغلو فى اظهار المشاعر . . أنت تقبلنى حتى
أحس أننى أكاد أفطس . . هذا ظلم . .
قلت : ولكننى أحبك . .

قال : لاتزعم أنك تحبنى قبل أن تستأنسنى . .
قلت : حدثنى كيف استأنسك . .
قال : أنت الآن بالنسبة لى مخلوق عادى كبقية الناس . .
وبالنسبة لك أنا مجرد قط عادى كبقية القطط . . اذا استأنستنى
ستصبح بالنسبة لى المخلوق الوحيد من نوعه فى العالم . .
قلت : وستكون بالنسبة لى القط الوحيد من نوعه فى
العالم . .

قال : نعم .

قلت : ماهى أهمية ذلك .

قال : يقول البشر « لامفاوضة الا بعد الجلاء » وتقول القطط
« لاحب الا بعد استئناس » .

قلت : نريد أن نلعب الآن . . . تعب . رأسى من الكلام .

قال : كنا نلعب منذ دقائق . . .

قلت : هل سئمت من اللعب . . ؟

قال : لكل شيء تقاليد . . . أجلس الآن فى الشمس وليست بى

رغبة الى اللعب . .

قلت : أراك تنشط فى الليل أكثر من النهار .

قال : النهار للنوم والليل لليقظة .

قلت : كيف

قال عيني ترى فى الليل أضعاف ماتراه بالنهار ، وما أريد أن أراه

حقيقة لا أنظر اليه بعيني .

قلت : لا أفهمك .

قال : استأنسنى أولاً وسوف تفهمنى فيما بعد .

.....

.....

بعد ثلاثة أسابيع قضائها القط فى بيتنا . . . وقع الحادث ذات

صباح حزين . .

تناولنا الافطار بعد أن لعبنا بما فيه الكفاية .

شربت الشاى باللبن . . . واكتفى هو باللبن .

رحت أتأمله وهو يشرب . . . ما أغرب أسلوب القط فى

الشرب . . . قلت لنفسى أى مأساة لو كان الانسان مضطرا أن يمد بوزه

فى الطبقة ليلعق الماء كالقطط . .

حاولت أن أجرب أسلوبه فدلقت الشاى واللبن فى الطبقة

وحاولت أن أشرب كالقط . . فتناثر الشاى خارج الطبقة وابتل لسانى

فقط ولم أستطع أن أشرب . .



قلت للقط : كيف تشرب بهذه الطريقة الغريبة ؟
قال : لعلك تحسدنى . .
قلت : بل أشفق عليك . . المسألة صعبة قليلا .
قال : راودنى نفس الاحساس وأنا أراك ترفع الكوب بيدك الى
شفتيك وتشرب . . كيف لاتختنق وأنت تدلق الماء فى فمك
هكذا . .

قلت ضاحكا : كدت أختنق حين حاولت الشرب من الطبق . .

قال : تعال نجرب مرة ثانية . .

قلت : تشرب أنت بطريقتى ، وأشرب أنا بطريقتك . .

قال : نعم . .

مد يده فى كوبى فاندلق الكوب ، وانحنيت على طبقه ورحت ألعق منه ، ودخلت أُمى فى هذه اللحظة الحاسمة . .

لست أعرف الآن هل كان القدر الأعلى يرتب هذه اللحظة ليقع بعدها ماوقع . . لست أعرف . . سأعرف فيما بعد حين أكبر أن كل شىء فى الوجود لا يقع الا لحكمة عليا . . حتى أوراق الأشجار التى يجىء عليها الخريف وتنقطع صلتها بالجذع الأم وتتهاوى فى رحلة النهاية . .

هذه الاوراق لاتنفصل عن الجذع قبل أن تسأل الله تعالى .
- هل أسقط .

وتتحرك هبة من الهواء وهى تحمل الإذن . . وتتهاوى الورقة . .

لا شىء يقع فى ملك الله بغير إذنه . . ولئن بدا للمخلوقات أنها حرة فهى فى حقيقة الامر حرة . . حرة نعم . . ولكن داخل اطار المعرفة الشاملة التى تعرف من أين والى أين ولماذا وكيف ؟ واذن فقد كان كل شىء مدبرا ليقع ما وقع للقط .

دخلت أُمى فشهدت المنظر . .

رأتنى أقلد القط وشاهدته يقلدنى . . كانت أُمى فى شبابها سريعة الغضب تسبقها يدها فى التفكير . . انهالت الصفعات على وجهى وهو مدفوس فى طبق القط . . ونال القط جانبا من الحب فانهاالت عليه ثلاثة اقلام سريعة . .

قفز القط من المائدة الى الارض مسرعا نحو باب الخروج . .
فى نفس اللحظة صدر الإذن للهواء أن يهب ويفلق الباب . .
انغلق الباب على ذيل القط . .
اندلعت صرخة القط فى مواء حاد . . تقلصت دموعى وقفزت
الى الباب وفتحته ونسيت امى تماما . .
كان ذيل القط يقطر دما . . وكان صديقى اللطيف الانيس
الصغير يشبه كرة من الالم تدور حول نفسها .
كان يصرخ مثل الكرة الارضية وهى تدور فى الفضاء . .
انحنيت على الارض ورفعته الى صدرى . .
جسده كله يرتعش . . وجهه يتقلص بألم يبرأ من التصنع . .
أدهشنى أن يصدر هذا التعبير المتكامل عن الالم من هذا المخلوق
الهش :

كان وجهه يزداد عذوبة كلما تألم . .
وكان مواءه ينغرس فى قلبى مثلما انغرست عصا موسى فى
الحجر .
لم تكد عصا موسى تضرب الحجر حتى انهار الصخر وتدفقت
من قلبه اثنتا عشرة عينا . . لم يتألم الحجر من ضربة العصا . .
ولكنه استحى ان يضربه موسى ولايبكى . .
بدأت أبكى أنا الآخر . .
لم أستطع أن الاحق بكاء الحجر . .
أعرف أن عالم الدموع غامض ومحير . .

.....

حين اتصلت دموعى بموائه . . ونشيجى بارتعاشه وتوحدنا



تماما . . . انفصل كلانا عن الآخر . . . قفز القط من صدرى إلى الأرض واختبأ تحت كرسى قديم . . .

سأعرف فيما بعد أن الألم يفصل المخلوق عن المخلوق ، ويدفع كليهما لأحضان الرحمة الخالقة . . . انكفأ القط على نفسه يلحق ذيله الجريح . . .

انحنيت على الأرض ونظرت إليه فى مكانه ورحت أفكر . . . ماذا أفعل . . . كنت أبكى ولا أعرف ماذا أفعل . صرخت على أمى قائلا :

- صبغة يود ياماما . . .

قالت أمى : حاضر يا حبيبى . . .

أسرعت تحضر صبغة اليود . . .

قال القط : ابتعدوا عني ايها الوحوش . . . لاجابة بى

لدوائكم . سألق جرحى وليكن مايكون . . .

سألته باكيا : ماهى أخبار ذيلك . . . هل تتألم الآن .

قال فى مواء طويل متصل : ألم من نوع يخرجنى من ذاتى .

قلت : ماذا أفعل من أجلك .

قال : صل من أجلى . . .

قلت : ماذا أقول لله . . .

قال : لا تقل شيئا . . . هو يعرف .

وهكذا توجهت الى الله فى سن العاشرة . . . كان مركبى ذيل قط

مقطوع . . . وشراعى ملح تضمه دموع . . . وكانت شهقة الدموع

واضطراب الصدر بديلا عن حركة الموج . . . ولست أذكر الان ماذا

قلت لله . . .

انما أذكر ان القط صرخ يحدثنى قبل ان يختفى تحت المائدة .
- لا تبتس . . الألم طريق الى الله ونافذة على رحمته .
لم افهم عبارته الغامضة .

كانت خصلات شعرى شديدة النعومة عميقة السواد ، وكان
للقط شعر فضى أشيب يميل الى الصفرة ، وقد اوقعنى الفارق بين
اللونين فى البحر فلم أفهم ، ليس سهلا على الجزء الطفل من سواد
الليل أن يفهم حكمة البداية الاولى للفجر . . لابد أن يدخل الشعر
الاسود دورة الويل ويتحول الى البياض لكى يفهم . .

وسقتنى الايام . . يوما بعد يوم . . معنى عبارته . .
الألم طريق الى الله ونافذة على رحمته . .
سأعرف فيما بعد عندما أحب ان الخمر احيانا تجيء من
العنب ، وأحيانا أخرى تجيء من الوجع .
انجرح ذيل القط وطار جزء منه فصرخ ، ثم نسجت الخلايا
ضمادة اوقفت تدفق التزيف فسكت . .
ماذا لو أنجرح روح الانسان جرحا لم يدر كيف ينسج حوله
ضمادة . .

ماذا لو كانت كلمة : « لم ادر » هى نفسها الجرح والسكين ،
هى الضحية والجانى ، هى نفسها قمة الفرح وذروة الألم .
سقتنى بيمنها وفيها فلم أزل

يجاذبنى من ذاك أو هذه سكر
ترشفت فاها اذ ترشفت كأسها
فلا والهوى لم أدر أيهما الخمر

هل فهمت ياسيدى القط معنى ما أريد قوله . . ارجوك ان
ترد . . أتوسل اليك أن تجيب . . لم يرد القط . .
لم يكن موجودا حين طرحت عليه السؤال . .

أسأله الان سؤالا عن حادث وقع بعد موته بعشرين عاما ، كيف
اتوقع منه أن يجيب ، اىكون الجنون قد صور للحاضر انه يستطيع ان
ينظر فى مرآة الماضى ليرى صورته .
لا أعرف . .

عرفت كل شىء الى الحد الذى صرت فيه لا أعرف شيئا . .
وشربت كل الانهار حتى قتلتنى العطش . .
واحبت كل الصور وغاب عنى أن ارفع تنهيدة حب واحدة الى
المصور . .

من حق الحياة أن ادفع الثمن .
أضاعنى ماأضاع صيادا كان يجرى فى الصحراء وراء ظل لطائر
يسبح فى السماء ، متصورا أن الظل هو الطائر ، وكلما اهوى الصياد
بنفسه على الارض محاولا امساك الظل تطايرت الرمال ودخلت فى
عينيه فدمعت عيناه . .

ويرى الصياد أحد الزاهدين فيرق لحاله ، ربما قال فى نفسه .
- ترى . . ما الذى يبكيه هذا الرجل الطيب . . اتراه مثلى عاشقا
للحق . .

لايعرف الزاهد ان الرجل لايبكى . .
لايدرك سر الرجل غير ذرات الرمال التى دخلت فى عينيه . .
لايرى الزاهد غير صورة الظاهر ، بينما يعاين الحق حقيقة الباطن .
عذرى اننى لم أكن أعرف . . لم أكن أفهم . . لم أكن
ادرى . . !

عذرى ان شعرى كان اسود وقلبى كان ابيض . .
حين انداح العذر وغرق ، وتحول الشعر الى البياض ونضج ،
كان القلب يستعير من الشعر نضج لونه الاسود . . وعادت الارض
جريانها فى الفضاء .

.....

« قل هو الله احد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له
كفوا احد » .

كتبها الاستاذ على السبورة والتفت الى وصرخ
انت يا حيوان . . قف وشرح معنى الاية :
السؤال موجه الى فى احدى حصص الدين ، عقلى غارق مع
القط وقلبى مشغول بذيله ، ومدرس الدين زميل لأبى ، وأبى مدرس
للتاريخ فى نفس المدرسة ، وأبى مشهور بالشلالية التى تقذفك لآخر
الفصل ، ومدرس الدين متخصص فى الضرب بالمسطرة على أطراف
الاصابع المثلجة فى الشتاء ، وأبى يطلق على لفظ الحيوان من باب
التحقير والامتهان ، ومدرس الدين يجد راحته فى الكلمة فيعممها
على جميع التلاميذ . .
وقفت صامتا . .

□ اشرح .

قلت : قل هو الله أحد يعنى قل هو الله احد
قال المدرس : ماشاء الله . . انت مسطول ولست معنا
يا أفندى . .

ارتفعت المسطرة الى اعلى ثم سقطت على يدي فى عز الشتاء
انتقل الألم من قرار الاصابع فارتد جوابا من الدموع . .

اغرقت الدموع وجهي فلم يعرف سيدى المدرس ان هذا خير
تفسير للآية . .

ان الله سبحانه وتعالى يتحدث عن ذاته . .
تكرما من ذاته . . لتراب خلقه . . أى تفسير يساق ابلغ من
الدموع . .

عدت الى البيت مقهورا باكيا أصابعى ترتعش . .
قلت للقط : انضربت بسبك ايها الشقى . .
لم يرد

قلت : كنت افكر فى ذيلك حين فاجأنى المدرس بالسؤال . .
ظل القط صامتا . .

أدركت ان طباع القط قد تغيرت بعد حادث ذيله . . صار
يقضى معظم اوقاته مختبئا تحت الموائد والكراسى ، فقد رغبته فى
اللعب ، ضاع منه حماسه البرىء للقفز والتنطيط . . استطاع الجرح
ان يقلم أضافر شقاوته وكادت شخصيته تتحول من الطفولة الى الكهولة
فجأة ، وخيل الى أنه زهد فى الحياة واللعب . وأزعجنى التحول
البادى عليه ، خشيت ان تطول فترة زهده فأضيع ولا اجد من يشاركنى
اللعب . .

انتهزت فرصة انتهى القط فيها من طعامه وشرب اللبن ، قلت له
وقد جلس يلحس ذيله الجريح ، ولم تزل على شواربه بقايا قطرات
من اللبن .

اراك مهموما

قال : ابدأ . .

قلت : ماسر انطوائك على ذيلك ؟

قال : لست منظويا

سألته فيم يفكر طوال هذه الساعات التي يقضيها وحده .

قال : في سر ماحدث

قلت : أمي هي السر . . ضربتك فقفزت مرعوبا فانصفق

الباب على ذيلك .

قال : غير صحيح . . أمك سبب ظاهر ، بينما السر حكمة

خفية . . وأنا ابحت عن السر . .

قلت : اي سر . . الدينا شتاء بارد ، ورياح الغرب تهب ،

والباب شرقي ولابد ان يوصد امام رياح الغرب . .

نظر القط في وجهي برعب . . بعدها قفز صارخا واختبأ .

قال وهو يختفي .

- أيها الجحيم . . لماذا اتذكر الآن كل شيء . .

.....

خيل اليّ انني اسمع صوت بكاء القط المكتوم تحت

الفراش . .

أسرعت زحفا واندست تحت الفراش . .

قلت له : ماذا أخافك ؟

قال : تذكرت كل شيء . . الآن اعرف الجريمة التي اعادتني

الى الحياة مرتديا جلد قط . .

لمع في ذهني ماقالته جدتي عن القطط : القطط بسم الله

الرحمن الرحيم فيها قطط وفيها جن وفيها ناس كانوا بيظلموا زمان

وانسخطوا قطط .

قلت لجدتي : تيته . . ليه القطط عنيها بتبقى حمرا بالليل . .

قالت : ماتبصش في عنيها يا حبيبي عشان ماتخافش . .

قلت : لكن ليه عنيها حمراء . .

قالت : دى نار جواهم . . بسم الله الرحمن الرحيم . .
تذكرت كلمات جدتى وأنا اتحدث مع القط .
أرعشنى تيار خوف بارد . .

سألته بوجل : أى جريمة اعادتك الى الحياة مرتديا جلد
قط . .

قال - وهو يكف عن لحس ذيله ويرخى شواربه .
□ دعنى فى حالى لو سمحت . . ليس هناك أقسى من مجد
تستعيد ذكرياته وأنت فى القاع .

قلت له : أأست صديقك . . حدثنى بكل شىء .

قال : داخلى نار تشتعل ، لن أتحدث الآن . .

رفع القط رأسه وتشمم الجو .

وهمس : ما هذا . . أشم رائحة سمك تقيه أمك على النار . .
جن جنون القط حين وصلت أنفه رائحة السمك . . فى قفرتين
كان يخرج من تحت الفراش . . وفى قفرتين كان يتمسح بأقدام أمى
فى المطبخ . .

فقد هدوءه وزهده حين رأى السمك .

لم أفهم السر فى حبه للسمك . . سأعرف فيما بعد أن القطط
جميعا تعشق السمك . .

فى بداية الحياة . .

حين كانت الارض عذراء لم تلمسها أقدام خاطيء من
البشر . .

كان البخار يتصاعد من البحار وينعقد سحابا فى الجو . .

وكانت القطط تقف على شاطئ البحر . .

كلما ألقت الامواج باحدى الأسماك الطائشة التى اقتربت كثيرا

من الشاطئ ، أبرزت القطط مخالبتها ومزقتها والتهمتها .



خرجت أمى من المطبخ . . غابت لحظتين وعادت .
فى اللحظة التى غابت فيها عاينت مشهدا شديدا الغرابة . .
قفز القط من الارض الى رخامة المطبخ ومد يده الى الصينية
التي تقلى فيها السمك وغرس أصابعه فى السمكه وعاد طائرا بنفس
الرشاقة الى الارض . وفى يده اليمنى سمكه نصفها مقلى ونصفها
نئ . . تلاشى تحت المائدة فى نفس اللحظة التى كانت أمى تدخل
فيها المطبخ .

اعترف أن القط كان أسرع من البرق ، وأرق من نسيم ليلة
خريفية ساحرة . . شىء ما فى تصرفاته كان يتسم بالرشاقة
الخرافية . . مثل أعظم راقصى الباليه بدأ حركته وانهاها . . دخلت
أمى ففوجئت ان الزيت يغلى على النار وحده بغير السمكة .
صرخت تسألنى :

- السمكة فىن

قلت : ما أعرفش

فى نفس اللحظة . . سمعنا صوت عظام السمكة وهى تقرقش
فى فمه . . انحنى أمى تحت المائدة وصرخت . .
- القط سرق السمكة . .

فزع القط ولكنه قاوم ذعره واستمر يأكل . . كان الجزء الناضج
فيها ساخنا فكان يأكل نصفها النئ ويضرب النصف الناضج بيده
ضربات سريعة لكى يبرد . . اغتاظت أمى لأن القط لا يعبأ بها ، وانما
هو مستمر فى السرقة . . خلعت شبشبها ومدته تحت المائدة وسمعنا
صوت اصطدام . . خرج القط بعده يجرى وهو يحمل نصف السمكه
فى فمه . .

ضحكت من اصراره على التهام السمكة ، وجن جنون والدتى

لانه لم يسقط من طوله رعباً منها . . وبدأت المطاردة بينه وبينها فى الشقة . .

كانت أمى تطلق صرخات وحشية كالتى تطلقها القبائل البدائية قاصدة منها أن توقع الرعب فى قلوب اعدائها ، وكان صراخها يزداد غيظا .

- القط حيزفر البيت كله سمك . . يادى النهار الأسود . . أغرقت فى الضحك وأنا اتبع المطاردة . . القط فى المقدمة وهو يجرى وفى فمه السمكة . . وامى وراءه وفى يدها المقشنة بعد أن قذفته بكل النعال الموجودة فى البيت ، وأنا بعدهما مراقب محايد . . وشقيقتى سميحة تتبعنا . .

حين اشتدت المطاردة وأوجعه الضرب سقطت السمكة من فمه . . وقارن القط فى ذهنه بين احتمالات الفوز بها والنجاة معا ، فلما رأى الفوز والنجاة مستحيلين آثر النجاة على الفوز فتخلى عن السمكة ونجا بجلده واختبأ . .

رفعت أمى بقية السمكة من الارض وبدأت بحثها عنه . . مثل فص من الملح ذاب القط تماما .

- الحرامى . . ياأنا ياهوه فى البيت . . بس إيدى تقع عليه . كان هذا هو التصريح الرسمى الذى أصدرته أمى ونحن نجلس الى مائدة العشاء . . وتشاءمت من التصريح رغم رغبتى فى الضحك .

ان مشهد القط وهو يقاوم لآخر قطعة من السمك . . وحسرة عينيه وهو يفلت فريسته من فمه لينجو بجلده

كان هذا التناقض بين المشهدين مثيرا للضحك الدامع . .

□ أنت مخبيه فين يا ولد ؟

السؤال الاخير موجه الى . . .

انكرت أنى أخبىء القط أو أعرف مكانه .

لم ينفعنى الانكار رغم أننى كنت صادقا فى نصف ما أقول كاذبا
فى النصف الاخر . .

ضربتنى أمى عقابا على جريمة إرتكبها القط . . أليس القط
ملكى ، ألسن مسئولا عنه . . لقد ارتكب جريمة واختفى ، واذن
يوقع العقاب على اقرب أقاربه الذى هو أنا ، وهكذا ، تصرفت أمى
مثل سلطات البغى فى الدول الطاغية ، وأهدرت شخصية العقوبة
وقانونيتها ، وعبثا حاولت أمى أن تعرف منى أين اختبأ القط . .
أغلقت فمى على السر ورفضت أن أعترف . . وزادنى التعذيب
اصرارا على الكتمان والعناد . . لم أكن فى حاجة لتخبئته . . وان
كنت أعرف أين اختبأ .

فى كنب الزمن القديم ، حين كان الخشب بريئا لايعرف
تصاريح القطاع العام وألاعيب السوق السوداء والبيضاء ، كان
النجارون يسبغون وضوءهم ويصلون ويسخون فى الصناعة ، وكان من
تقاليد الكنب البلدى أن تزود جوانب الكنبه من الداخل برفوف صغيرة
تزيد من متانة الصنعة .

واذن يخبىء القط فى رف من هذه الرفوف ، ويستطيع من ينظر
تحت الكنبه أن يخطىء رؤية القط ، على حين يراه القط . .
كنت واثقا ان القط يخبىء فى هذه البقعة الاستراتيجية . .
واذن احتمل الضرب . .

جاءت جدتى على صوت صرخاتى فأزاحت أمى بخشونة ومدت
يدها فاخترطفتنى منها .

بعد لحظات كنت أختبئ في حضنها . . الدنيا كلها عدو
باستثناء حضن جدتي . . هنالك عرفت مذاق الأمان الحقيقي
والسلام ، وهناك لايجرؤ مخلوق أن يقترب مني أو يمس شعرة من
رأسي .

في صدرها كان يموت الخوف ويمتلئ القلب بالسكينة . .
كنت أصرخ من الضرب ، فلما احتضنني أكثر أنسان احبته في
حياتي بكيت ولم يكن بكائي ألماً من الضرب ، وانما تعطشا الى
الرحمة .

شخطت جدتي في أمي شخطة سريعة . . ورفعت صوتها
باحتجاج قاس بأنها ستترك البيت لو ضربني بعد ذلك أحد . . وتراجع
البيت كله أمام تهديدها الصارم . .
□ عايز أنام في سريرك ياتيته . .

« تعال يا حبيبي »

يدور رأسي اليوم حين استعيد شحنة الصدق في العبارة : .

« تعال يا حبيبي »

.....

.....

بعد أن كبرت ، سمعت الكلمة عشرات المرات ، وعبثا بحثت
عن مذاق التجرد القديم الذي تضمه كلمات جدتي في كلمات
النساء . . ما من مرة واحدة عثرت . .

أبدأ لم تعطني امرأة ما أعطته جدتي من الحب . .
كان فعلها منزها عن العلل والأغراض والحاجة . . كان فعلها

مثل زهرة تمنح عطرها لأنها لاتستطيع ان تفعل شيئا غير أن تمنح عطرها .

حين تقول لى زوجتى اليوم تعال يا حبيبى أفهم أن لديها مشروعا لشراء شيء وتريد منى نقودا . . . وحين تقول لى أمى تعال يا حبيبى اعرف أن لديها شكوى من أبى وتريد منى موقفا محددًا ، وحين تقول لى ابنتى تعال يا حبيبى أتأكد انها شاهدت لعبة جديدة وتريد أن تشتريها . . . أما جدتى فهى تقول تعال يا حبيبى ، ولا تريد من الكلمة غير الكلمة . . . لا تريد بكلمتها أن تشير الى شيء . . . كانت جدتى هى الكلمة ذاتها . . . كلمة الحب ذاته . . .

□ افسدتك أمك بالتدليل . . .

كلمة سمعتها من زوجتى . . .
أبدأ لم أكن أكشف السر . . . لم أقل أن أمى لم تفسدنى . . .
لم أقل أن جدتى هى المسئولة عن كبريائى مع النساء . . . بعد الحب الذى أعطته لى لم يعد ممكنا أن أحزن على حب امرأة . . .
بعد أن ماتت جدتى ماتت - داخلى - كل فرحة يمكن أن تعطيها لى امرأة مخلصه . . .

عرفت الكثير وعشقت صوراً كثيرة ، ولكننى كنت دائم البحث عن هذه البراءة القديمة التى كانت تقف على طرفى نقيض بين طفولتى وشيخوختها ، ورغم ذلك تصل الجسور بين البراءتين . . .
لم تكن جدتى لطيفة أو رقيقة مع الجميع حتى ليتمكن القول ان هذه طبيعتها الثانية ، على العكس من ذلك . . . كانت صارمة الى الحد الذى لايجرؤ فيه مخلوق على مناقشتها . . . وكانت تستمد صرامتها من عدالة حاسمة وعقل مسيطر ، وكم راقبت تصرفاتها مع أبنائها وعائلتها ، حين صار أحد ابنائها وزيرا شغلته أعباء العمل فنسى

أن يزورها يوم الجمعة كما كان يفعل ، وكان هذا الابن هو الذى ينفق عليها . . . وطلبتة يوم السبت واسمعتة كلمات عنيفة جافية .

وكان كل ما استطاع أن يقوله لها

- يائنة يكون حد بسمعك . .

ولم يعجبها رده فاغلقت فى وجهه سماعة التليفون . . وجاءها باكياً يقبل يديها . .

كيف لأحبها وهى تختصنى من بين العالمين جميعا بالمحبة . .

أن اعظم الرجال فى عائلتنا ينحنى على يديها لتقبيلها ، وهى تنحنى على رأسى لتقبيله . .

لم تكن لدى أى فرصة لمقاومة حبها .

فى سنواتها الاخيرة حجت الى بيت الله الحرام ووضعت يدها على شباك النبى صلى الله عليه وسلم ، وفتحت لها الكعبة فدخلتها ، وعبثا سألتها :

- شفتى ايه ياتيته جوه الكعبة .

وكانت تغمغم : ما أقدرش اقول لك شفت ايه يا حبيبى . ده سر .

كل ما أذاعته من السر هذه المسبحة الطويلة التى صنعت من خشب الصندل . وهذا التردد المستمر لسورة الاخلاص .

« قل هو الله احد . الله الصمد . . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد » . .

- كم مرة ستقولينها ياتيته .

مائة الف مرة . .

- لماذا

لا جواب غير الصمت ولمعة في العينين و ، « قل هو الله
احد . . الله الصمد . . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد » . .
.. ..

اذكر يوم ماتت جدتي . .
كان عمري يقترب من العشرين . .
ولم اكن قد رأيت الله بعد
لم تكن تشكو شيئاً ثم مرضت قبل رحيلها بثلاثة أيام . . امتلاً
البيت بالناس وانكفاً شعاع القمر في الشرفه وأجهشت حجارة البيت
بالبكاء .

.....

لم أهضم ما حدث . .
جلست في غرفتها على الارض . .
عيني على الفراش الساكن وغصة الزجاج في حلقى ، وثمة
احساس مسيطر بأننى اقف على سطح الكرة الارضية وهى تدور
بى . .

وحدى . .
مات الهواء والتراب والنار والماء . .
مات الانسان والحيوان والنبات والجماد .
بقيت وحدى تماماً على سطح الارض وهى تدور . .
راحت الارض تدور . .

انتقل الدوار الى عقلى فأنشأ يدور ، ثم توحد عقلى مع الارض
فلم اميز بينهما ودار كل شىء . حين خلت الأرض وخلا عقلى من
الناس والكائنات وصور الغير .

حين لم يعد هناك غيرية الغير ، ولاغيرية الذات
عندئذ رأيت الله . .

فى طوفان الدموع جاءت سفينة هائلة من خشب الصندل ،
انقسمت كل حبه من حبات المسبحة الى آلاف الاشجار العظيمة
والتحمت معا لتصنع سفينة ، كل حرف من حروف سورة الاخلاص
كان عشرات الحجرات التى تمتلئ بسكينة الأمن ودفء العطر وبرد
السلام . . وفاض التنور وصعدت السفينة أعلى قمم الأمواج
وصعدت جدتى الى حجرتها فى سورة الاخلاص . . ورأيت على
الأمواج رحمة الله وهى تضحك لجدتى .
وبدأت رحلة حبى الى الله من يومها . .

... ..
... ..

بعد ان نام البيت كله . .
نهضت من سرير جدتى وسرت على أطراف أصابعى ومددت
يدى تحت الكنبه ، وأخرجت القط . .
شممت رائحة فمه فاذا هى بحر من السمك
قلت له هامسا : شىء مؤسف . .
قال : فعلا . .

قلت له : اقصد رائحتك . . زفارة السمك .
قال : انت طفل لاتعرف ان لكل مخلوق عطره الخاص ،
وزفارة السمك هي عطر البحر .
قلت : ستقتلك امي لو عثرت عليك .
قال : سوف احتفظ برأىي في أمك حرصا على مشاعرك .
قلت : السيدة معذورة . .
قال : تستخسر في قطعة من السمك لاراحت ولا جاءت . .
افرض أن نفسي تاقت للسمك . . ماهي الجريمة .
قلت : الجريمة واضحة
قال : ياسلام
قلت : رأيتك تسرق بعيني
قال : تضربني امك بالشبشب . . أنا
قلت : أنت لص
قال : هذا ماتراه بعينيك . . والحقيقة ليست ماتراه بعينيك . .
قلت له : لماذا تعود الى الالغاز ؟
قال : بل اعود الى الماضي فأحكي لك سرّاً من أسرار القطط
أين خبأت أمك السمك ؟
قلت : في دولاب المطبخ . . والدولاب مغلق . . والمفتاح
تحت رأسها
قال : آه . . لا أمل إذن في السمك . .
قلت : نعم . .
قال القط : مادمنا سننام بجوعنا فلا بأس أن أحكي لك
قصتي . .

.....



فى قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان . . كان القط الذى
يجلس أمامك الان وقد طار نصف ذيله وإنضرب لانه حاول أكل قطعة
من السمك . . كان هذا القط الضعيف البائس اميرا حاكما فى عصر
من عصور التناسخ القديمة . .
قلت : لا أفهمك . .

قال : لم تزل طفلا ولهذا لاتفهم . . استمع الى الحكاية
صامتا مثلما تستمع لحكايات جدتك . . قبل أن أرتدى جلد القطط
الحيوانى ، كنت أرتدى جلد الأدميين . . كان اسمى الامير
« رصنالا » وكنت حاكماً مطلقاً لمدينة السرور . . وكنت ، ألقى
بأعدائى السياسيين الى أسماك القرش لتلتهمهم ، فتأمل تعاستى اذ
انقلب قطا وتضربنى أمك بالشبشب لاننى أحاول التهام قطعة من
السمك .

اى انتقام للعدالة الالهية .

قلت : يزداد حديثك غموضا . . ما الذى تعنيه بالتناسخ . .
قال : تولد انسانا فى عصر ، وقطا فى عصر آخر وحمارا فى
عصر ثالث . .

قلت : لماذا

قال : تكفيرا عن ذنوبك أو إنتقاما منها . . الأمر سيان .
قلت : تريد أن تقنعنى أنك كنت أميراً .
قال : كنت أميراً ظالما . .

قلت : لأصدقك . . أنت تلعب بى مستغلا طفولتى . .
قال : كان عمر الخيام استاذاً فى مدرسة نيسابور ، فشاهد مع
تلاميذه حماراً كان ينقل الطوب لترميم المدرسة . حرن الحمار
ووقف بالباب فلم يدخل .

تبسم الخيام ودنا من الحمار وأنشد فى أذنه الطويلة هذه الرباعية
على البديهة

قال الخيام للحمار :

أيها الزاهب هاقد عدت حيواناً أضللاً . . . ويك

ضباع إسمك من بين الأسامى واضمحلا
ان اظفارك صارت حافراً مجتمعاً . . .

وغدت لحيتك الشمطاء فى عجزك ذيلاً

لم يكد الخيام ينتهى من انشاده حتى دخل الحمار المدرسة بعد
حرونه . . . فلما سئل الخيام عن ذلك قال لهم إن هذا الحمار كان
استاذاً بهذه المدرسة ، فلما تقمصت روحه جسم هذا الحمار ، لم
يستطع أن يدخل ، غير أنه لما وجد أصحابه قد عرفوه لم يجد مناصاً
من الدخول . . .

قلت : رباعية حمارية حقاً . . . هل انت واثق أن قائلها هو
الخيام ؟

قال : لست واثقاً من شىء . . . سمعتهم يقولون ذلك . . .

قلت : لكنه يسخر من البشر ويتهكم على الأستاذية .

قال : كل شىء جائز . . . الا تريد أن تسمع بقية قصتى . . .

قلت : بالتأكيد .

قال : أين كنا . . . آه تذكرت الآن . . .

قلت : معذرة لأننى اقاطعك . . . كيف عرفت حكاية الخيام
والحمار .

قال : أنا قط مثقف

قلت : لعلك تقصد القول أنك كنت أميراً مثقفاً . . .

لاتقنعنى أنك عرفت حكاية الخيام والحمار وأنت قط . .
عرفتها طبعاً وأنت أمير

قال : بل عرفتھا وأنا قط . .

كنت أميراً جاهلاً فصرت قطعاً مثقفاً . . أحد أمرين . . إما أن
تكون مثقفاً فى حياتك وتعرف أسرار الكون ، وإما أن تموت
جاهلاً فتستيقظ وتدخل الجحيم لتكملة تعليمك وثقافتك ، وفى
الجحيم تعرف كل شىء بعد أن تصير المعرفة بلاقيمة . . ليس
فى الجحيم كله واحد مثقف حقاً . الجحيم يمتلىء بانصاف
المثقفين . . أين كنا فى الحكاية . . كثرة أسئلتك الساذجة
تكاد تنسينى الموضوع .

قلت : كنا فى مدينة « السرور » مدينتك التى حكمتها .
قال : حين ولت عليها كان إسمها مدينة السرور ، بعد
أن حكمتها صار إسمها مدينة « الأحزان » . . لم أكن اقصد
هذه النتيجة ابتداءً ، إنما تصورت أن عقلى وحده يكفى لحكم
المدينة . . وحكمت بعقلى المنفرد كل عقول الرجال والنساء
فى المدينة .

جففت دون أن أدرى روح الانسان فى الانسان ،
وأيقظت دون أن أدرى روح الأحزان فى الجماد . .
كانت أياما تعيسة .

.....

.....

أنتم أقوى مدن الارض .
اعظم مدن الارض .
أحسن مدن الارض .

أغنى مدن الأرض .
أغرق مدن الأرض
وإذن أنا اعظم أمراء الأرض . .

كان الناس يسكرون كعادتهم بالخمير الرديئة ، وكانت كلماتي
تلعب برؤسهم كالخمير الرديئة . . تشعل الحماس وتثير الدوار وتوحى
بالقوة وإن حطمت داخل الانسان إرادته . . ماذا أفعل . . كنت
حاكماً لا يعرف الله . . وحين ينسى الانسان الله فليست هناك جريمة
يتردد فيها أو خطيئة يرتجف أمامها . . يرتجف الشيطان نفسه حين
يلتقى بانسان لا يؤمن بالله .
رعباً يرتجف . .

ازددت التصاقاً بجذتي ونظرت فى قاع عيني القط فرأيت نارا
ثابتة حمراء
إرتعشت وأنا أسأله .

- داخل عينيك نار
قال : النار فى قلبى وإن عكستها نافذة العين .
قلت : أحس بالخوف وأريد أن أصرخ .
قال : إنس ماقلته لك . . لقد كنت أمزح معك . . أنا قط
لأقل ولا أكثر . .

قلت له : وحكاية تناسخ الأرواح
قال : خرافة لاتسكن غير ذهن محدود . .
قلت : لما كنت تكذب ؟
قال : كنت أحكى لك حدود . . نم يا صغيرى نم . .
ألا تؤمن بالخيال . . نم . .
اغلقت عيني وأطعت القط .



بدأ القط يقرأ . .

أرر . . أرر . . أرر

لم أكن أعرف ماذا يقرأ . . لم أكن أعرف أيامها أنه يقوم بواجبه
اليومى من تسبيح لله .

هناك أنواع عديدة من الحيوان تقوم بعدد من التصرفات التى
لا يمكن تفسيرها علمياً ، ولا يمكن إرجاعها لأسباب مفهومه . .
خذ قراءة القط مثلاً . . هذا الور الذى تقوم به القطط عندما
يمسح على ظهرها أحد . . أو تستشعر حناناً زائداً من أحد . . هذا
الور سر من أسرار القطط . . حين تقدم بى السن . . سألت أطباء
بيطريين وعلماء فى الحيوان عن هذا الور فقل لي :
- هو صوت تصدره القطط

قلت : أنتم تفسرون الظاهرة بالظاهرة . . أعرف أنه صوت
تصدره القطط
أسألكم لماذا تصدر القطط هذا الصوت . . ماذا تريد بهذا
الصوت ؟

قالوا : لانعرف .

خذ تصرفات مالك الحزين مثلاً . . هذا الطائر الجميل الذى
يجىء عند الغروب ، ويقف على ساق واحدة . . ويظل ساعات واقفاً
هكذا . . وقد رفع منقاره الى أعلى . . لماذا . . لا أحد يدرى . .
خذ مثلاً هذا الصوت الذى يصدره الحمام عندما يجىء
الفجر . . هذا الصوت الغريب الجميل الرائق الذى يتجاوز طلب
الطعام أو الشراب .
أى شيء يكون . .

خذ مثلا سر أشجار البنفسج التى تمنح أزكى عطرها فى
الفجر . .

يقف العلم حائرا أمام هذه الظواهر . . يرصدها ويسجلها ولكن
لا يقدم تفسيره لها . . ليس لها تفسير غير قوله تعالى :
« وإن من شئ إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون
تسبيحهم » .

أحيانا أقرأ هذه الآية الكريمة وأفكر .
أتكون هذه الأصوات الغامضة صلاة ترفعها المخلوقات لله . .
أو تكون تسبيحا لا يعلمه غير الله . أى شئ تكون إن لم تكن
كذلك . . إن أى تفكير سليم الفؤاد يقود مباشرة لهذه النتيجة . .
ولا يستطيع المرء أن يمنع نفسه من التفكير والدهشة حين يصل
لهذه النتيجة

وقديما لم أكن أفكر فى طفولتى كنت أشعر فقط . . كنت
احس فحسب .

كلما وضعت يدى على رأس القط وبدأت أملس على
جسده . . سمعت هذا الصوت

إذا توقفت ظل هو يقرأ فترة . . بعدها يتوقف . إذا عدت الى
هددته عاد الى القراءة . . تصورت أنه يصلى ، وقامت فى ذهنى
علاقة بين كمية الرحمة التى تتلقاها المخلوقات فى الأرض . . وكمية
الصلاة التى ترفعها المخلوقات لله . .

كلما زادت الرحمة فى الأرض زادت كمية القراءة والصلاة . .
تأملت كثيرا فى انطباق هذا القانون على كثير من المخلوقات
ولاحظت أنه لا ينكسر أبدا . . وأدركت يومها سرا من أسرار الظلم فى
الأرض .

كلما رفع احد الرجال قدمه وضرب قطا أوكلبا نقصت كمية
القراءة والصلاة فى الأرض . . وكلما وقع ظلم على احد البشر
نقصت كمية القراءة والصلاة فى الأرض . . ولما كانت الأرض
تحتاج الى نسبة معينة من النقاء لكى يكون لدورانها معنى فان
تصرفات البشر تجعل دوران الأرض أحيانا بلا معنى . .
وتجعل دوران الأرض أحيانا يثير الدوار والغثيان . .
استسلم القط للنعاس بعد صلاة طويلة . .
واستسلمت معه للغفو . .
تركت نفسى لأول موجة من موجات النعاس . .

.....

.....

يشبه النوم بحرا احدى جزره هى الموت ، وشاطئه الأخير هو
البعث والعالم الآخر . . يرقد الانسان على ظهره ويطفىء نور العالم
الخارجى باغلاق جفونه ، انقطع التيار الكهربائى عن المروحة فظلت
دائرة ثم ابطأت ثم هدأ دورانها ثم ازداد البطء حتى توقفت . .
يغمض الانسان عينيه فكأنما يقطع تيار الحياة عن عقله . . تهدأ
ضربات القلب ويتسلل الى العقل شىء غامض . .
فى البداية يعبر المرء موجا أخضر فى مياه البحر . . لم يزل
الموج يشف عن قاعه القريب من شاطئه اليقظة .
اي خبطة باب أو شباك تستطيع إيقاظ النائم . .
تبطىء ضربات القلب أكثر ، ويقع شىء غير مفهوم للعقل
فيبطىء نهر الأفكار من تدفقه . . يعبر المرء موجا ازرق . . نبتعد عن
الشاطئ أكثر وتنسدل على العقل ستارة تمنع العالم الخارجى ان ينفذ
اليه .

بعد ساعة من النوم تبدأ المياه الغريقة . .
يتقلب المرء ويهدهده موج داكن الزرقة . .
مثل تنفس البحر يتنفس الانسان . . تنساب فى الأفق القريب
أشعة الأحلام البيضاء . . انت سجين فاذا احلامك تقدم اليك
حصانا ابيض تجرى به فوق عشب الحرية . . أوتعيس أنت فتهبك
الأحلام لحظات من البكاء الذى يضم من مياه البحر ملح التفاؤل . .
أوشحاذ أنا فأشهدنى فى الحلم اميرا وسيدا . . اوتريد هذا القمر
وتبكى من أجله فترى القمر فى الحلم يبكى عند اقدامك . .
ماذا لورق قلبك للقمر . . تعرف تأثير القمر فى البحر . . هو
المستول عن مده وجزره . . كل آهات القمر تؤثر فى تنهدات
البحر . .

تزداد توغلا فى البحر . .
تدخل المياه الداكنة . . موج البحر يبدل ثيابه مثل امرأة خرافية
الحسن . . بعد ثوب الصباح الأخضر وثوب الظهيرة الأزرق وثوب
المساء الرمادى الموشى بالأحمر يجرى ثوب السهرة . ثوب الليل
الأسود . وذلك لون بلالون .

يهدأ الهياج الجامح للموج ويتحول الماء الى زيت .
هذه مياه النوم العميقة . . لا احلام هنا . .
قبل ان اصل الى مياه النوم الغريقة رأيت حلما . .
شيخ كبير يجلس فى جزيرة صغيرة .
تحت اقدامه قط يشبه القط النائم على صدرى . .
كنت أعرف القط من لونه وتعبير عينيه وصورتي التى أراها
منعكسة فى القاع الذهبى لعينه . .
عرفت فيه صديقى القط . .



أسرعت نحو الشيخ قائلاً :

- هذا القط ملكى

تبسم الشيخ وقال :

- تفضل بالجلوس أولاً وحدثنا كيف كانت رحلتك ؟

قلت له : ما الذى جاء بهذا القط الى البحر ؟

قال : جاء أصلاً من البر ويزور البحر . . القط يحلم بجزيرة حولها بحر من السمك . .

قلت : هل أكل . .

قال : يحلم الآن أنه يأكل .

قلت : مدهش

قال : بل طبيعى للغاية

سألت : هل حدثك القط أنه كان أميراً فى عصر من عصور التناسخ القديمة .

قلت : حدثنى بذلك

سألنى الشيخ : هل صدقته ؟

قلت : صدقته فى البداية ، ثم اعترف لى أنه كان يكذب

قال الشيخ : لقد صدقتك حين اعترف بكذبه . .

لقد انتهز فرصة طفولتك وراح يسرح بك . . مسألة التناسخ

مسألة مضحكة . . روح واحدة تحل فى جسد انسان ، ثم جسد كلب

ثم جسد حمار ثم جسد نملة . . لماذا . .

هل هناك أزمة أرواح عند الخالق سبحانه وتعالى . .

هل تتصور أن الله خلق أرواحاً محدودة وأجساداً عديدة ثم راح -

حلاً للاشكال - يجعلها تحل فى الأجساد . .

التناسخ تصور بشري يقصر عن ادراك غنى الله سبحانه وتعالى ،
هو فكرة فنية تسربت الى العقائد السليمة من تصورات الوثنيين .
قلت : لقد أرحتنى كثيرا . .
قال : حمداً لله . .

تذكرت شيئاً فقلت للشيخ : لماذا خلق الله القطط ؟
قال : لماذا لاتسأل القط عندما يستيقظ . .
ذابت الجزيرة في البحر وذاب الشيخ والقط ودخلت مياه النوم
الغريقة التي تخلو من الاحلام . .
.....

مت حتى الصباح ثم بعثت . .
نسيت اننى أريد أن أسأل القط لماذا خلقه الله ؟ ؟
لم يترك لى فرصة للحوار معه طيلة اليوم . .
كان شبه مجنون من الجوع . .
أعطيته اللبن فرفض أن يشربه . .
قلت : لماذا لاتشرب اللبن ؟
قال : انتهى الأمر . . وفطمتنى رائحة السمك . . أين خبأت
أمك السمك ؟
قلت : لا أعرف
قال يجب أن تعرف . . أنت طفل أبله . . أنت لاتصلح لتربية
قط . . على من يربى قطا أن يكون سيدا حقيقيا . .
قلت : ماهو السيد الحقيقى فى رأيك .
قال : هو الذى يعرف أين خبأت أمه السمك . المفروض أن
تطعمنى . . أأست حاكما على . .

على الحاكم أن يطعم المحكوم . . والا فلا طاعة مع الجوع .

قلت له : تهددنى رغم انك تعرف مشاكلى . . امى سيدة حاسمة . . ودولاب المطبخ من الخشب القوى ، والمفتاح صنع فى المانيا ، وهو تحت رأسها . . كيف امد يدي تحت مخدتها واخرج المفتاح وافتح الدولاب واسرق لك السمك وانظفه لك من الشوك واطعمك .

قال : دع مهمة تنظيف السمك لى . . لاتشغل نفسك بهذه الأمور . .

احضر الطعام ودع لى مهمة تنظيفه .

قلت : تريدنى ان اسرق .

قال : لايسرق الجائع حين يسرق وهو جائع .

قلت : لأفهم

قال : براءه . . يمنح الجوع براءه

دخلت أمى فانقطع الحوار .

قالت أمى : لماذا لم تفطر . .

قلت : نفسى مصدودة . . كل يوم فول فول . . زهقت من

الفول . .

قالت : ماذا تريد أن تأكل

تذكرت حلم القط بجزيرة حولها بحر من السمك وقلت :

- نفسى آكل سمك . .

قالت امى : انت اتجنت . . سمك فى الفطار .

كنت قد سمعت خالى يقول انه شاهد الانجليز يأكلون السمك
فى الافطار . .

قلت : زى الانجليز مايباكلوا سمك فى الفطار . .
النهاردة انا انجليزى . .

بدأت اردد لأمى ماحفظته من كلمات اللغة الانجليزية
التى يدرسونها لنا فى المدرسة . . انبسطت امى من ثقافتى
ورغبتى فى التجنس المؤقت بالجنسية الانجليزية وقالت فى
اعتراض أخير

- ياواد السمك يئذك عالصبح . .

قلت : أبداً

قالت : إعمل لك سندوتش . .

قلت : عظيم . .

كان القط يرقبني طول الوقت ويصفق لى بذيله . . رفع ذيله
مرتين ففهمت أنه يحيينى . . حضر سندوتش السمك فقلت لأمى آكله
فى البلكونة . . فهم القط ، ولكنه سألنى بنظرة عميقة .
أى بلكونة

قلت لأمى : البلكونة الكبيرة البحرى .

أسرع القط مثل سيف من البرق نحو البلكونة . . سرت مطمئناً
أظاهر أننى اقضم السندوتش . .
وقفت فى البلكونة . .

كانت تطل على حقول ورد حمراء ، واشجار توت عريقة . .
وأمامها شباك أول فتاة قدر لى أن أقع فى حبها . .
كانت هى تقف وترقبني دون أن أراها . .

مددت يدي في السندوتش وأخرجت قطعة سمك وألقيتها للقط . .

قال القط : برافو . .

والتقطها من الهواء مثل أي كلب بوليسي مدرب
قال لي : جرب أن تلقى قطعة ثانية وسأجرب أكلها قبل أن
تصل إلى الأرض بثلاثة أقدام . .
ألقيت إليه القطعة الثانية . . والثالثة . . والرابعة . . ومددت
يدي بحثا عن القطعة الخامسة فاصطدمت يدي بلباب العيش . .
- خلاص يا استاذ

قلت للقط ولكنه لم يصدق إلا حين فتحت له الرغبة ، وشمه
جيذا وتأكد من خلوه من السمك . .
امسكت بيدي الرغبة وقلت أين اطوحه . . قبل أن أرميه بثوان
دخلت أمي . .

سألتني

- انت ماكلتش ليه . .

وبدأت أكل الرغبة الحاف متظاهرا بأنه مليء . . متلذذا من
السمك . . ناظرا إلى القط بعينين مغيظتين . . سعيدا في نفس
الوقت لأنني أضحي من أجل صديقي . .
من نافذة البيت المقابل . . كانت « س » ترقب هذا
المشهد . . كانت تضحك كما حدثتني فيما بعد . .
سعيدة لأنني أكل الرغبة بغير طعام . . مندهشة في نفس
الوقت من سر هذا التصرف

كيف يحب الإنسان قطا أكثر مما يحب نفسه . .
لم تكن تعرف أن الحب لا يجيء حين يجيء إلا هكذا . .

اما أن يكسر الانسان اسوار الذات ويخرج . .
واما ان يظل حبيس حبه لنفسه فلا يعرف ابدا مذاق الحب . .
لم اكن اعرفها قبل ذلك أو أكلمها ولكننا كنا نذهب الى
المدرسة سويا فى سيارة « عم رضوان » . . ونحن عائدون من
المدرسة تانى يوم سألتنى بارستقراطية وخبث .
- كان طعمه ايه العيش .

قلت : عيش ايه انا ما بكلش غير سميط
قالت : امبارح كلت العيش حاف . . ليه . . ؟
قلت ببراءة : أصل القط أكل السمك
قالت : ليه

لم أعرف ماذا أقول لها . .
كيف تحدث من لم يذق طعام النبيذ عن تحولات العنب . .
كيف تقنع من لم يعرف العشق فى عمره ، ان للعاشق جناحين
يطير بهما وهو لا يبرح مكانه .

. فى طفولتى كانت أى إبتسامة ممن أحب جناحاً يحملنى الى
عالم مسحور . . عالم ليس فيه امتحانات ولا متاعب ولا درجات
ولا كحكات حمراء ، ولا ضرب بالمسطرة على أطراف الأصابع . .
عالم ليس فيه الا الحب . . وحصان ابيض . .
وأميرة تقف فى نافذة القصر المسحور ، أنت تخط على الباب
الهائل المصنوع من الاصداف والخشب والفضة . .
ثمة صوت من الداخل يسألك .

- من بالباب ؟

□ أنا بالباب . .

لن يسأل فيك أحد . . لم تزل تقول أنا . . لم تزل تذكر أن

لك ذاتا تقول عنها « أنا » . . واذن لايفتح الباب . . سوف تنصرف
وفى قلبك جرح صغير . . ثم تتراءى لك الأميرة الساحرة فى
الحلم . .

لماذا لم تحضر . . انتظرتك فلم تأت . . سجينه أنا وأريد أن
أتححرر . .

وتعود الى الباب ، ويسألك السائل من بالباب ، وترد أنا
بالباب . . ويزداد صوت الاقفال وهى تغلق . . تنصرف أخيراً وقد
وقعت فى الحب . . يزداد وجهك شحوبا . . وجسمك نحولا
وروحك شفافيه . .

إذا انصهرت روحك ولم تعد تستطيع ان تقول « أنا »
إذا ضاعت ذاتك فى ذات الحبيب . . وقرعت الباب . .
وسألك السائل

من بالباب ؟

لن تقول : انا بالباب

ستقول : انت بالباب

عندئذ يفتح لك الباب . .

انفتح الباب لى فشهدت سجادة من الحشائش الخضراء تمتد
حتى تلتقى بالأفق ، على يسار الخضرة شاطئ من الرمال وبحر
أخضر فى لون عيون القطط . .

وأمام البحر صخرة مرتفعة . .

وعلى الصخرة قصر تغطيه زهور الفل . . فى احدى شرفات
القصر تقف الأميرة . . . وتحت الشرفة حصان ابيض . .

وتبدأ رحلتك مع العشق .

لااعرف متى اكتشفت اننى احب . .

تحول حبي من القط الى ابنة الجيران ، أو قل ان حبي للقطط
كان تدريباً على حب ابنة الجيران تدريباً على حب فتاة ثانية ، وتمضى
التدريبات الروحية كما يقول العارفون حتى تكتشف يوماً انك أمام حب
الجلال الخالق ذاته . .

حين يقول الطين الملوث للبذرة - سأصنع منك شجرة ورد . .
حين يقع ذلك فأنت فى الطريق .
فى البدء . .

حدثت القط أننى أحب .
قلت له : أيها القط اللطيف . . لقد وقع صديقك فى الحب .
قال القط : مامعنى ذلك

قلت له : لأعرف كيف اشرح لك الحب . . ولكنه شعور
يجعلك تحس أنك قد عثرت على السر . . هو شىء رائع وممتع .
قال القط : أهو شىء ممتع كالسمك .

قلت له : ذهنك مغموس فى بطنك . . وعقلك غارق فى ظلام
اللحظة الحاضرة . . أنت قط طفس . .
قال : أنا حيوان فلا تنسى ذلك .
قلت له : الا تحب أبداً .

قال : لو استطعت أن أحب لصرت انساناً
مشكلتى أننى ارتدى جلد قط .

قلت له : عندما تقف هى فى النافذة ، ينسكب من وجودها
على البيت نور غامض فأحس أن الصداقة قد انعقدت بينى وبين
مهندس البيت . . وبين العمال الذين اشتغلوا فيه . . وبين الطوب
الذى صنعوه منه ، وبين الارض التى جاء منها الطين ، وتمتد الصداقة
الى حوافر الحيوانات الطيبة التى سارت على الطين . . وتتصل

الصداقة بالنجوم . . ألم نكن أصلا جزءا من نجمة هى الشمس . .
نجمة كانت تحب وتشتعل . . ثم زادت عليها وطأة الاحساس بالعشق
وانفجرت شظايا وصنعت الارض والقمر والكواكب . . بردت الاجزاء
حين بعدت عن الأم . . بردت الارض وصنعت المسافة ولوعة البعد
قشرتها الطينية . . أنت تتصل بهذا كله حين تحب . . إننى أحاول
تبسيط الامر لك . . هل تفهمنى ؟

قال القط : انت تتفلسف على الآن فدعنا من فلسفتك . .
ان امك تشوى على النار لحما . . لماذا تشوون اللحم . .
قلت : طعمه يصير افضل . .

قال : أبدا . . اللحم النىء أفضل . . تفسدون الأشياء
بوضعها على النار . . تقع لها تحولات كثيرة فتفسد . . آه لو ظل
اللحم على براءته الأولى . . آه لو ظل السمك على براءته الأولى . .
قلت : أنت ضيق الأفق حقا . . البراءة الاولى لامعنى لها . .
البراءة الاخيرة هى القيمة الحقيقية . . أى كائن يعيش على السطح
الترابى للارض لابد أن يتلوث . . العبرة هنا بالبراءة الاخيرة
لا الاولى .

قال القط : تعتقد انه لاوجود للبراءة الاولى .

قلت : نعم !

قال : انت حر وأنا حر ، انت انسان وأنا حيوان . . لست
مثلك . . أريد أن العب . .

قلت له : كيف لاتهمد . . أنت لاتكف عن اللعب لحظة من

ليل . . وتنام كثيرا أثناء النهار .

قال : مزاج القطط هكذا . .

ظهرت الاميرة فى النافذة المقابلة فانقطع الحوار بينى وبين
القط . .

نظرت اليها فابتسمت . .
حدثنى كيف يقف الناس أمام شلالات المياه الساقطة من أعلى
الجبال .

كيف يقف الناس أمام الاهرامات . . أوقوس قزح . .
كيف وقف الناس أول مرة أمام معجزات الدنيا السبع . .
لو عرفت كيف كانوا يقفون صامتين بغير كلمة واحدة . .
باستثناء هذا الخشوع الذى يتبدى فى العيون .
لو عرفت ذلك فسوف أقول لك أننى كنت أقف هكذا أمام
ابتسامتها . .

لم استطع أن أرد التحية . .
هل ترد أنت على تحية الشمس لك كل يوم . .
هل ترد على نسيم البحر حين تقف أمام أمواجه . .
ابدا . .

كل ماتفعله انك تتلقى التحية دون رد . . وربما اعتقدت انها
حقك الطبيعى دون جدال ، على الارض انواع من التحيات لاتستطيع
لها ردا . . من بينها ابتسامات أول فتاة أحببتها . .
تلاحظ البنت بأعوامها العشرة اننى مقطب أمامها ولا أبتسم . .
لعلها تقول فى نفسها انه لم يلاحظ الابتسامة .
لعلها تتصور أن نظرى ضعيف .

هاهى الابتسامة الثانية تشق طريقها الى الوجه وهى تمشى على
استحياء . . فى ركن الفم الأيمن ارتعاشة الوليد الجديد . .

تفتر الشفاه عن ابتسامة طفلة ستكبر أمام عينيك . . . وستقع هذه المعجزة أمامك في ثوان وربما كنت منطفئا من الداخل ، وربما افلقت منك فرصتك الاخيرة في رؤية المعجزات . . .

لم تزل المعجزة تولد امامك . . .

أليست معجزة أن الانسان يبتسم . . .

قل لى اى مخلوقات الله يبتسم غير الانسان . . .

ان الحيوان لا يبتسم ابدا . . . ووحوش الغابه ربما اطلقت اصواتا تشبه القهقهات البشرية المخمورة ، لكن أحدا لا يبتسم فى الوجود غير الانسان . . . ثم يقولون لنا

- نريد ان نرى الله كى نؤمن به . . .

ألا يكفى ان يشاهد الانسان اجمل ما خلق الله لكى يؤمن به . . .

أيكفى من يقف أمام القطار بالتأكد من وجود صانع القطار . . . ويحتاج من يقف امام ابتسامة الانسان الى رؤية الله كى يتأكد من وجوده . . . سبحانه وتعالى . . .

انتهت الابتسامة من صنع معجزتها وها هى تتهادى بين الشرفتين . . .

أريد أن ارد على ابتسامتها بطريقتى الخاصة . . . انحنى على الارض وأرفع القط إلى أعلى وأقول لها .

- كبر القط عن الامس . . .

وعندئذ كانت تقهقه . . .

وكنت أضحك معها . . . وتتعانق الضحكتان بديلا عن عناق الجسدين ، فنحن لم نزل أطفالا لا نعرف أن لنا جسدين . . .

القط ينزعج من رفعى له إلى أعلى ونحن نقف على الشرفة ،
ولا أعرف من أين عرف أن هذه شرفة وهذا شارع . . وأنه يمكن أن
يسقط من الشرفة إلى الشارع فيموت . .
لا أعرف من الذى حدثه بهذا كله . .

القط يتشبث بيدي ويغرس
أظافره فى لحمى متصوراً أنها ستقيه
من السقوط . . واذا ظللت أرفعه
هكذا نطق . .

- مياو عياو نياو . .

سألته : ماذا تقول ؟

قال : انزلنى أولاً . . لن أتكلم
وأنا معلق هكذا .

أنزلته إلى الأرض وسألته .

- ما معنى مياو عياو ونياو . .

قال معناها . . الرحمة

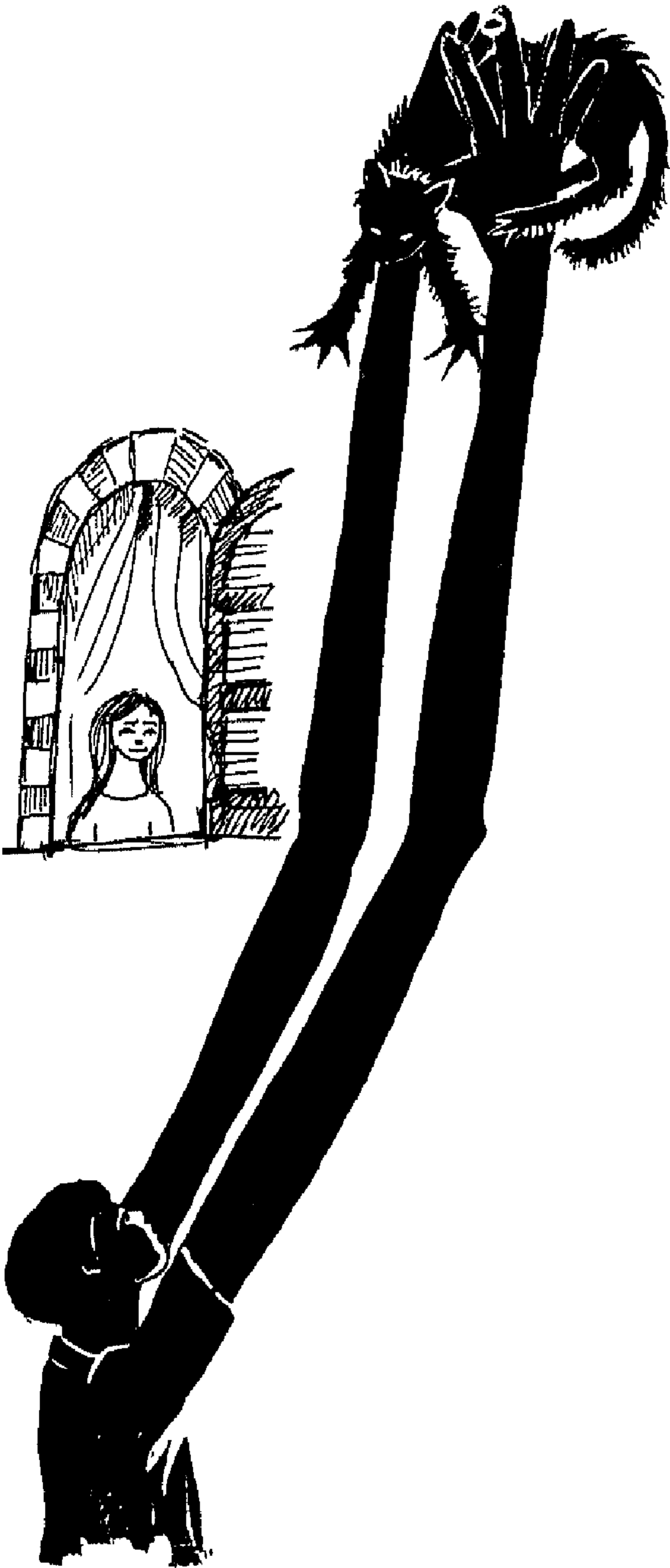
قلت له : أنت شديد الغباء . .

هل تتصور أننى سأرميك من
الشرفة .

سألنى : لماذا ترفعنى إلى أعلى

إذا كنت لاتنوى أن ترمينى فى
الشارع وتقتلنى .

قلت : لتراك هى . .



قال : من تكون « هى »

قلت : ألم أحدثك انى أحب .

قال : ما معنى الحب

دائرة مفرغة تنتهى لتبدأ وتبدأ لتنتهى وتدور بك فاذا انتهت دورتها أسلمتك إلى ما تركته فى النهاية

دورات لا تكف عن الدوران . .

يولد الانسان عاريا ويعود إلى الأرض عاريا . .

يولد وأصابه قابضة على الهواء ويعود إلى الأرض وأصابه قابضة على الهواء . . يحب ويعانق وبعدها يترك ويفارق . .

لاشئ يبقى على حاله ابدا ولا استمرار لشيء ، الكل باطل وقبض الريح ، حتى الشمس تفقد جزءا من حرارتها كل يوم . . وعما قليل سيجىء يوم تبرد فيه ويكسو الجليد ظهر الأرض .

قد يكون هذا اليوم بعد عشرة آلاف سنة وقد يكون بعد عشرة بلايين سنة وقد يكون فى ساعة لا يديرها سوى الله . .

قال مدرس العلوم : الأرض كوكب والشمس نجم . . والنجم ملتهب والأرض أربعة أخماسها مياه . . والشمس تفقد جزءا من حرارتها كل يوم ولكننا لا نحس . .

ما معنى هذا . .

أيجىء على الأرض يوم تتجمد فيه مياه البحار . .

نعم يجىء هذا اليوم . .

جاء على هذا اليوم حين سافرت هى إلى الاسكندرية .

قالت لى خلال عودتنا من المدرسة فى تاكس عم رضوان
- هل تسافرون إلى الاسكندرية ؟

قلت : لن نسافر

قالت : انا سأسافر

سكت . . وجاء يوم رحيلها . :

كانت هى والقط والشمس قد صاروا شيئاً واحداً . . وحين
تحرك بها التاكسى إلى الاسكندرية انطفأت الشمس فجأة .

لم تكد الشمس تموت حتى تجمدت البحار فجأة . .

أمسكت المراكب التى تمخرها وسط جليد كف عن تنفسه . .

ماتت أسماك البحر فجأة حين انطبق عليها صدر البحر . . قاوم

أحد الحيتان ولكنه سجن أخيراً وسط الجليد . . سجن يونس فى

جوف الحوت المسجون . . امتلأت الدنيا بالبرد فجأة .

وعبثاً حاولت أن أضرم القط لصدرى أثناء الليل . .

فراؤه لم يعد يدفئنى . .

صوت قراءته لم يعد يثير داخلى شيئاً . .

يلاحظ القط ان دموعا تسقط من عيني على فرائه . .

يقول وهو يتشاءب : الدنيا تمطر . .

لا أرد . .

يعود يسألنى : مالك

أقول : لاشىء . . انا أبكى لأنها ليست هنا . .

قال : لماذا تبكى . . ومن هى التى ليست هنا . .

لن تفهم . . أنت قط ولن تفهم . . أصمت ودعنى أحزن . .
للحزن قداسته فلا تعكره بالأسئلة التافهة والتأؤب . لا تتشاءب فى
وجهى وإلا وضعت اصبعى فى فمك . .
عاد يتشاءب فوضعت اصبعى فى فمه فانزعج . . كأننى وضعت
له قبلة فى فمه .
عاد القط يتشاءب وعدت إلى التفكير فيها . . ماذا تفعل الان فى
مدينة الاسكندرية . . هل هى نائمة . .
بماذا تحلم . .

الم يزل البحر هناك يتحرك أم تحولت أمواجه إلى الثلج .
سألنى القط فجأة

□ ألسـت جائعا

قلت : لا أظن

قال : انا جائع . .

قلت : أنت مفجوع . . لم أرك مرة واحدة ترفض الطعام .
قال : أحس بالفراغ الداخلى هذه الأيام . . ولهذا يسرع

الجوع نحوى .

قلت : كنت فى البداية زاهدا . . ثم صرت مفجوعا . .
ولا أحد يدرى ماذا يحدث لك غدا .

قال : القلب من صفات الحيوان . .

قلت : حاول ان تنام وغدا نأكل . .

قال : غدا بالنسبة لى قد جاء . . انا الآن جائع . .

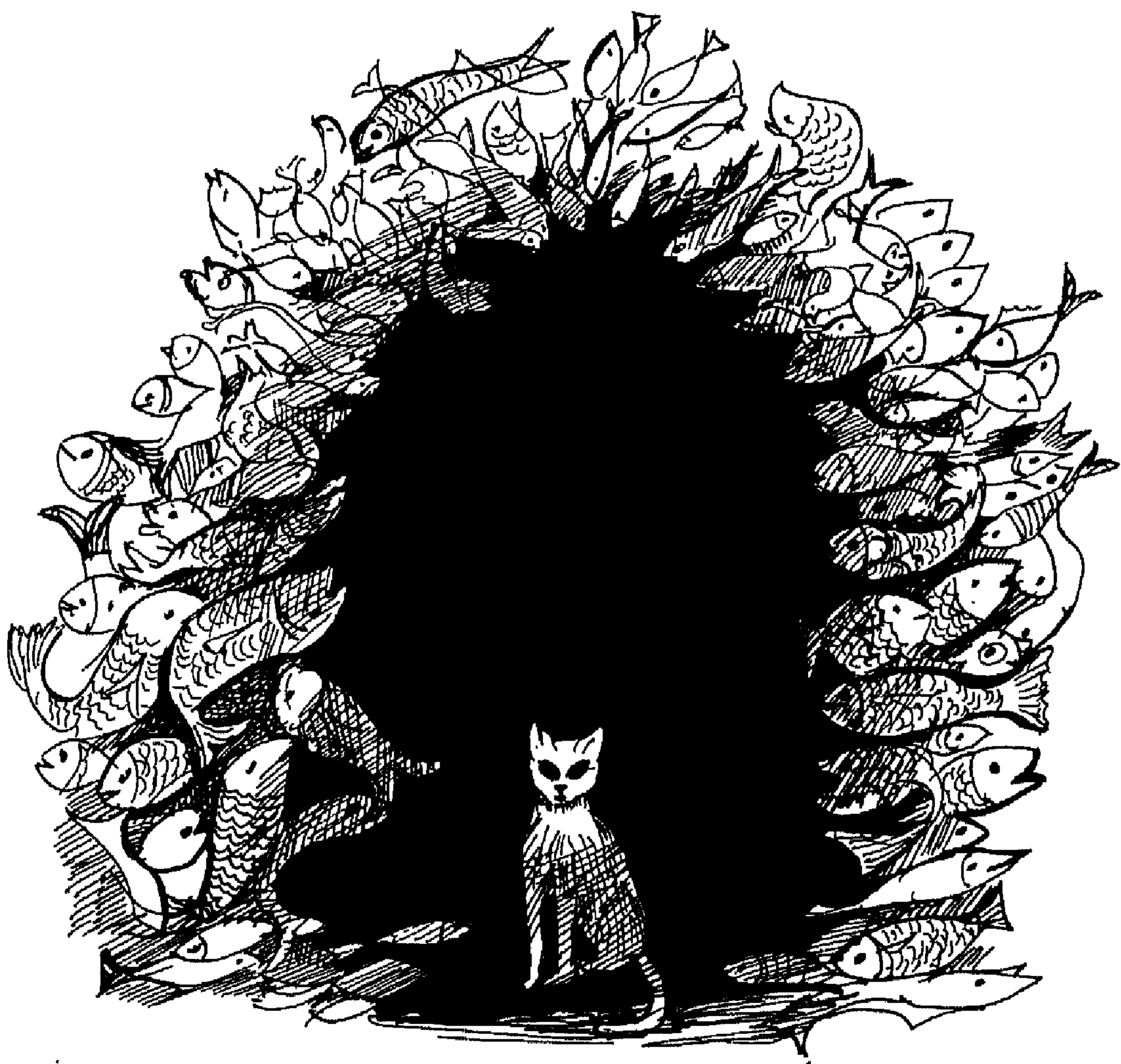
قفز من الفراش إلى الأرض

سألته : إلى اين تذهب

قال : ابحث عن رزقى فى المطبخ

قلت : أُمى سيدة منظمة والاكل مخبأ فى الدولاب ولا داعى
للسرقة . .

قال : تستطيع اعتبار رحلتى إلى المطبخ رحلة استكشاف . .
هدفها علمى بحث . . البحث عن منجم للسّمك أو اللحم . . تخيل
منجما من السمك أو اللحم . . كلما أخذت منه لم ينفذ . .



قلت : صورة غريبة

قال : هذه صورة الجنة عندنا - . . بالنسبة إلى القطط ليست الجنة غير منجم من السمك ومنجم من اللحم . .
أسرع يختفى من الغرفة . .
بعد دقائق سمعت صوت إرتطام قوى فى المطبخ . . صوت حلة تقع من رف على الأرض .
أغمضت عيني وتناومت حتى نمت .
كنت حزينا ومتعبا فلم أعبأ به . .
عثرت عليه فى الصباح ينام تحت اقدامي .
- ماذا وجدت بالأمس .

قال : لم أجد شيئا . . البنت الشغالة لا تغسل الحلل جيدا . . اشتبهت فى احدى الحلل . . فلما أوقعتها على الأرض اكتشفت أن فيها زفارة وليس فيها طعام . .
منجم كاذب . .

ما أعظم الكذب فى حياة الآدميين . .
أحسست ان القط يهاجم الجنس الذى أنتمى اليه .
قلت له وانا اعبث فى رأسه

□ الكذب مخلوق يدب على الأرض . . واحيانا يموء كالقطط
قال القط : الكذب هو ابن الانسان . . من بين جميع المخلوقات التى خلقها الله فان اشدها تغيرا تحت ضوء القمر هو الانسان ، والتغير جزء من الكذب . .

قلت : تحابى جنسك من بنى الحيوان .
قال : بل أقرر حقيقة . . لا يكذب الحيوان . . يتصرف بدهاء

لكنه لا يكذب . . الكذب يحتاج إلى الانسان . . إلى رقى
الانسان .

قلت : أليست مأساة أن مجال الرقى يلامس مجال الكذب .
قال : يخلق الله الخلائق بغير كمال لحكمة عليا . .
أدهشتني النظرة الساهمة في عين القط . . وأدهشني
كلامه . .

سألته : لماذا يخلق الله الخلائق بغير كمال ؟
قال : الملائكة قمة في النقاء ، لكنهم لا يعرفون . .
والانسان يعرف ولكنه يكذب . .
والحيوان لا يكذب ولكنه وحش . .
وهكذا تستمر سلسلة الخليقة . . يفتقر كل الخلق إلى الله . .
ويحسون بنقصهم ازاء كماله اللانهائي ، ويحسون بضعفهم ازاء تعاليه
وكمال صفاته .
هذه هي الحياة .

قلت : اذن . . فالكمال أمل لا أمل فيه .
قال القط : الكمال هدف على الخلائق أن تسعى اليه . .
قلت : لكن أحدا فيهم لا يصل .
قال : ليس المطلوب أن تصل الخلائق ، وانما تكمن القيمة في
رحلتهم اليه
بقدر ما تقطع من رحلتك إلى الله ، بقدر ما تقترب من جوهر
الحقيقة وترتفع . .

الله ، بقدر ما تقترب من جوهر الحقيقة وترتفع . .
قلت : تتحدث كصوفي .

قال : القطط مخلوقات صوفية الملمس صوفية الباطن . .
باطننا يعرف الله وان بدا ظاهرا قريبا من الأرض . وللعلم ، ليس

التصوف أن تعرف الحقيقة . التصوف أن تكون أنت جزءا من الحقيقة . . لا قيمة للمعرفة المجردة . . تتحول المعرفة إلى فكر . . تصير نوعا من أنواع الرياضة البحتة . .

ادهشتنى حكمته وتصورت اننى عثرت على قط أوتى من الحكمة قسطا لا بأس به . . وقررت ان استفيد من الخير الذى أوتيه القط . .

وضعته تحت الدراسة فترة . . لاحظت تصرفاته كلها . . راقبت ردود فعله جميعا لكننى لم أصل لشيء ذى بال . . كان القط يتصرف مثل أى قط عادى . . يصيبه الجنون إذا جاع . . ويموء إذا احس بالعطش . . ويسرق اللحم والسمك غير عابىء بقوانين الأرض الوضعية أو عرفها الجماعى . . وباختصار . . كان يبدو على القط انفصالا تاما بين النظرية والتطبيق . . بين ما يقوله وما يفعله . .

أردت ان أحدثه فى ذلك ولكننى خجلت . . وذات يوم . . قلت اجمع شجاعتى وأحدثه . . انتهزت فرصة استمتاعه بالجلوس فى الشمس وقلت له - يا صديقى . . كيف حالك . .

قال : وهو يتمطىء : بخير حال

قلت : عجيب

قال : ما هو العجيب

قلت : ضميرك مرتاح

قال : بالتأكيد

قلت : مدهش

قال : ما هو وجه الدهشة

قلت : ألم تلاحظ هذا التناقض فى شخصيتك . . انت
تحدث حديثا لا يقوله أعقل العقلاء فى الأرض . . لكنك تتصرف
مثل نمر صغير أو وحش .
كيف . .

تثائب القط ومسح وجهه . . وقال : تثير قضية قديمة . .
وتنعى على القطط مالا تنعاه على الانسان ، نحن ننتمى إلى فصيلة
الحيوان . . ومن الطبيعى أن تكون أقوالنا غير أفعالنا . . المأساة ان
البشر يفعلون ما نفعله بغير حياء ، ويجدون ما يبررون به جرائمهم من
المنطق . .

قلت صارخا : انت تعترف الآن انها جرائم . .

قال : هى بالنسبة اليكم جرائم . .

قلت : الجريمة واحدة يا سيدى القط .

قال : الجريمة نسبية حتى ولو كان الفعل واحدا . . تأمل فعل
من يتسلق مواسير المياه ، ومن يتسلق جبال الألب . . انتم تسجنون
من يتسلق مواسير المياه وتكرمون من يتسلق جبال الالب . . الفعل
واحد وربما كان جهد من يتسلق مواسير المياه أكبر واصعب من جهد
من يتسلق جبال الألب . .

ولكن اختلاف النية يجعل الفعل لصوصية فى حالة ، ويجعله
بطولة فى حالة أخرى . .

قلت : ماذا تريد أن تقول

قال : أريد أن أقول مالا تقوى على فهمه .

قلت : انت تهرب منى

قال : بل أشفق على طفولتك . . أنت ساذج

.....

.....

.....

لم يعجبني اشفاق القط على طفولتي . . ولا أعجبني اتهامه لى
بالسذاجة ، كانت قصة الحب الخرافية التى أعيشها تؤكد لى اننى قد
كبرت ولم أعد ساذجاً . . وقررت أن أناقشه فى الأمر . .
انتظرت أفضل أوقاته . . وكانت فترة القيلولة . . بعد طعام
الغداء .

انه يختار بقعة مشمسة فى البيت يسترخى فوقها ، ثم يمد يده
تحت رأسه ويغفو قليلا . .

انتظرت حتى نام وأيقظته لأساله

□ لماذا تتهمنى بالسذاجة ؟

نظر إلى بعينين عابستين وقال :

— أى دليل تريد على سذاجتك أكثر من ايقاضى من

النوم ، ألا يستطيع الانسان أن يرتاح فى بيته ؟

قلت له : تعتبر أن هذا بيتك .

قال : بالتأكيد : ألم تسمع الحكمة الشهيرة « للقط بيت

وللكلب صاحب » .

قلت له : سمعتها . . وكنت أتصور أنك ستكسر الحكمة

وتثبت لى أنك أوفى من الكلاب .

قال القط محتجاً : لست كلباً لأكون وفياً . . انما أنا قط

قلت له محاولاً اخراجه من هدوئه

— خسارة . .

قال القط حانقاً : لا تحدثنى عن حسابات الربح والخسارة
لانى لست بقالا . . وإذا ظللت تحدثنى بهذا المستوى فسوف
أتركك وأنام . .

انتهى القط من كلماته وعاد يغمض عينيه ويغفو . .
وعاودت ايقاظه . .

قلت له : لماذا تعتبر أن مجرد ذكرى للكلاب أو إشارتى اليها
اهانة لك . .

قال القط : الكلب روح بسيطة . . أما القطط فأرواح أشد
تعقيدا ، آسف . .

لقد استخدمت الكلمة الخطأ . . أنا لا أقصد الروح وانما
أتحدث عن النفس . . الكلب نفس بسيطة . . أما القطط فنفس
أشد تركيبا وتعقيدا . .

قلت له وأنا أضحك : أخيراً تعترف أنك مخلوق معقد .
قال القط عابسا : لا تكن جاهلا . . التعقيد هنا اشارة إلى بناء
هذه النفس . . وهو دليل على الرقى . . انظر إلى بساطة
الحجارة . . انها لا تفعل شيئا غير أن تكون حجارة ، أما القطط
فتتغير ألوان عيونها فى النهار عشرات المرات ، وفى الليل عشرات
المرات . . انظر إلى عيني ترى نيرانا حمراء فى قاعها . .
أخافنى حديث القط فلذت بالصمت . .

وعاد هو إلى نومه الهنىء . . .

ولم أفهم فيم كان يفكر وهو نائم . .

ان عضلة من عضلات وجهه كانت تلعب . . كما أن قدما من
أقدامه راحت تتحرك حركات خفيفة وسريعة ، ومضيت أتأمله وهو
نائم . .

فتح عينيه ونظر الى فلما اطمأن إلى انصرفى عنه عاد يغمض
عينيه . . .

.

.

مرت الايام . . وراح القط ينمو . .
تضاعف حجمه ودخل مرحلة ما قبل الشباب . . وهى مرحلة
لم أفهمها الا فيما بعد . .
فوجئت بها ، وتمثلت هذه المرحلة فى النشاط الذى أصابه
فجأة . . وفى الحيوية التى هبطت عليه كالطوفان . .
ان القط يجرى من أول الغرفة إلى نهايتها جريا سريعا ، ثم يقفز
فجأة إلى السرير ، ومن السرير إلى المنضدة ، ومن المنضدة إلى
الدولاب . .

ثم يقبع فوق الدولاب وقد تحفز قليلا ، ثم يتشمم سطح
الدولاب فلا تعجبه رائحة النفطالين التى تسربت من الملابس
المخزونة ، عندئذ يقفز قفزة هائلة من الدولاب إلى السرير إلى
المنضدة ثم يمرق من باب الغرفة حيث يعاود جريه فى الصالة . . لم
أفهم سر تصرفاته . .

سألته فى لحظة من لحظات استعداده للقفز .

- ماذا تفعل

قال القط : أصمت . . ودعنى أشتغل . .
قلت لنفسى : أى شغل يقوم به القط . . لا ريب ان وراء
نشاطه سرا غامضا . . سوف انتظر حتى يعود إلى حالة من حالات
المزاج الرائق حيث يطيب له أن يتحدث . . ثم أسأله . .

.

سأدرك فيما بعد ما الذى كان يفعله القط . .

.

.

.

مسرح البولشوى فى موسكو

يفتح الستار على باليه « انا كارنينا » لتولستوى . . الراقصة
الاولى مايا بليتسكايا . . أجلس فى المقاعد الاولى بمحضر
الصدفة . .

كنت عضوا فى الوفد الادبى لافريقيا وآسيا ، وكنا نزور
موسكو ، وسألت عن تذكرة لحضور البولشوى فاعتذروا آسفين بأن
المسرح محجوز لسته أشهر مقبلا . .

كنت أحلم أن أشاهد فريق البولشوى . . وملائى اليأس لضياح
الفرصة . . وذات يوم ذهبت أزور مصريا يقوم بتحضير رسالة
للدكتوراه فى جامعة موسكو . .

ودق التليفون فى غرفته . . استمع قليلا لمحدثه ففهمت من
الحديث أن أحدا يعرض عليه أن يذهب معه لمشاهدة الباليه فى مسرح
البولشوى . .

وجدت نفسى أمد يدى إلى التليفون وأحدث انسانا لا أعرفه
وأخبره اننى أنا الذى سيذهب معه . .

وهكذا دعوت نفسى على الباليه . .

كان المهندس المصرى الذى يدرس هناك قد حجز منذ شهور
طويلة تذكرتين له ولزوجته ، ثم مرضت زوجته فكلم صديقه ،
والتقطت فرصتى وذهبت . .

حين شاهدت راقصى الباليه وراقصاته . . فهمت لماذا كان
القط يقفز من الدولاب إلى الأرض ، ومن الأرض إلى المنضدة
وبعدها إلى الدولاب . .

كان القط يقوم بتدريباته ، وكان يعبر عن عشرات المعانى
برشايقته واستخدامه لمرونة جسده . . وكان راقصو الباليه ينافسونه ،
أو كان القط هو الذى ينافسهم . . لست أدري

كل ما أدريه ان فى كل جسد انسانى ، أو حيوانى ، قدرا من
الرشاقة والمرونة والجمال الذى يشير لاعجاز القدرة الخالقة التى
أبدعت الاجساد . . ويشير فى نفس الوقت إلى طاقات الفرح التى
منحها الله تعالى للخلائق حين منحهم الحياة . .

ذكرتنى رشاقة الراقصين والراقصات برشاقة القط . .
وذكرتنى وحدتهم مع الموسيقى بوحدة القط مع موسيقى الكون
التي كان هو وحده يسمعها وهو يرقص . .

كان القط يجتاز مرحلة الطفولة الى مرحلة الشباب . . ومن ثم
فقد راح يرقص فرحا بالنعمة الجديدة التى يحسها فى أوصاله . .
نعمة الشباب بكل ما يحمله الشباب من قوة . .

.

.

تغير سلوك القط بعد أن قضى فى بيتنا فترة . .
فهم بغريزته مراكز القوة فى البيت . . ونجح أن يتفاهم معهم
بأسلوبه المنفرد حتى انه طواهم جميعا تحت أجنحته كما يقولون . .
فهم أن أمى تكره صعوده على فراشها أو دخوله غرفتها ، فلم
يعد يتجاوز باب الصلاة إلى غرفتها . .

فهم أن حركته فى المطبخ تثيرها وتجعلها تتعثر فيه وهى تسير
فلم يعد يعترض طريقها . . انما صار يقبع فى زاوية من زوايا المطبخ
ويرمقها بنظرات متسولة . .

ورق قلب أمى أخيرا له . .
صارت تعتبره أحد سكان البيت المسئولين منها ، وصارت تعد
له طعامه وحده . .

وكانت - بالطبع - تكتفى بالعظام وجلد اللحم وقطع الشغت
وقد تحدث القط معى فى الموضوع ذات يوم .
قال لى : يبدو أن والدتك تتصور أننى كلب ولست قطاً
سألته : لماذا

قال : إنها تؤثرنى بالعظام . . ولقد أفهمتك قبل ذلك اننى
لست كلباً . .

الكلاب تأكل العظام ولكن القطط تأكل اللحم . .
قلت له : لماذا لا تقول هذا لأمى . .
قال القط : يد أمك أسرع من عقلها . لن تفهم . .
قلت له : والحل

قال : الحل أن تعطينى أنت نصيبك من اللحم والسمك ، هذا
هو الحل الوحيد . .

قلت له : وأنا . . ماذا آكل إذا اعطيتك نصيبى كله ؟
قال : لا داعى له كله . . نصفه يكفى . .
ضحكت ساخراً . . فنظر إلى القط بعينين قلقتين . .
قال مستعطفاً : أنت إنسان كريم ولن تتركنى أهلك من
الجوع ، أو أضيع باعتبارى كلباً . .

يجب أن تتصرف . ألسنا أصدقاء . . ألسنا عصابة واحدة . .
تصرف اذن . .

.

اكتشفت فيما بعد أن القط أقنع أمي بشرعية وجوده في البيت ،
وأقنعني بشرعية اقتسامنا للطعام ، وأقنع أبي بأدبه الجم ورضائته أنه
هو ابنه المؤدب ، وأقنع أخوتي البنات بالتمسح في أقدامهن انه نعم
الصديق الحنون . . بعد ذلك بدأ يتصرف في البيت كما لو كنا جميعا
ضييفا عليه . . كان كريما للغاية ، فعاملنا كأنه صاحب البيت . .
واعتبرنا ضيوفا ثقلاء يحتملهم لوفير كرمه وعميم اريحته . .
كان واضحا ان القط يحب نفسه بعمق . .
قلت له : كيف تكون صوفيا وتحب نفسك لهذا الحد . .
انت تكذب . .

قال القط : الصوفى يقتل نفسه في عشق الحق حبا لنفسه
وانقاذا لها . .
وجرتُ ماذا أقول له . .
ثم فكرت حتى اهتديت . . قلت له : أنت أنانى تقصد ذاتك
لا الحق . .

قال القط : اعظم أنواع العشق عشقك لنفسك . .
قلت : أليس هذا جوهر الأنانية . .
قال القط : بل هو جوهر الحكمة عندنا . . الحكمة
الحيوانية . .

هل نسيت أنني حيوان . . ما يعتبر جوهر الأنانية عندكم نراه
نحن جوهر الحكمة .
أخرجني رده . .

لقد نسيت أنه حيوان . . وكثيرا ما كنت أنسى إنتماءه الحيوانى
لعائلة النمر المصغرة . . وأعامله بوصفه إنسانا يرتدى معطف
قط . .

وأحيانا كان القط يتعامل معى كما لو كنت قطا يتخفى فى جلد
البشر وثيابهم . .

وكان هذا التبادل بيننا دليلا على عمق الحب الذى يربطنا ،
ورغم ثقتى ان القط كان يحبى . . الا انه لم يستطع أن يخبىء عنى
حبه الواضح لنفسه . .

كان يحب ذاته حبا عميقا . . أو قل أنه كان عمليا للغاية . .
إن كل ذكائه وسلوكه توظف لهذا الغرض . .

أردت أن أسأله فى ذلك ، لكننى لم أكن أعرف كيف أسأله
ولا كنت أعرف كيف أخاطبه . .

..... ونصحنى القط ان أقرأ قصيدة ت . أس . اليوت . .
مخاطبة القطط . .

.....
لقد قرأت عن أنواع مختلفة من القطط . .

ورأى الآن انك لن تحتاج الى مترجم . .

لتفهم شخصيات القطط . .

لقد تعلمت ما فيه الكفاية لتعرف . .

ان القطط مخلوقات مثلى ومثلك

ومثل بقية الناس الذين نجدهم

وقد حكمتهم نماذج مختلفة من العقل . .

ان بعضهم معتوه . . وبعضهم مجنون . .

ان بعضهم طيب وبعضهم سيء . .

ان بعضهم افضل وبعضهم أقل فضلاً . .
وهم جميعاً كالإنسان يمكن وصفهم فى الشعر

.

والآن . . كيف تخاطب القطط .
فى البداية . . سوف أنعش ذاكرتك . .
وأقول . . ان القط ليس كلباً . .
ان الكلاب تتظاهر بأنها تحب القتال . .
وهم كثيراً ما يزومون . . وأحياناً يعضون . .
رغم كل شيء . . يبقى أن الكلب فى مجمله . .
ما يستطيع أن تسميه روحاً بسيطة

.

مرة أخرى أذكرك أنه . .
الكلب كلب . . والقط قط . .
مع القطط . . يقول البعض أن هناك قاعدة صحيحة . .
لا تتكلم مع القط ولا تخاطبه حتى يكون هو الذى
يخاطبك . .
ولتضع فى ذهنك وأنت تخاطبه أن القطط تكره رفع
الكلفة . .

.

هذا صحيح تماماً . . صدق الشاعر فيما قاله
ان القطط تكره انسياع الحدود ، وتنفر من رفع الكلفة ،
ولا تحب أن يقتحم عزلتها أحد . .
وهناك تقاليد للحديث مع القطط ، ولقد أنبأنا اليوت فى شعره
أنه كان يخلع قبعته وينحنى قبل أن يخاطب القط . .

ولكن القطط ليست فى سذاجة الملوك ، لتكتفى بالاحترام
والتحية والمراسيم الانحنائية . . أنها تتطلب لاثبات الولاء أدلة أكثر
اقناعا . .

ولكى تكسب ثقة قط . . يجب أن تقدم اليه طبقا من
القشدة . .

ثم تنحنى وأنت تضع له طبقا من اللحم أو السمك . . هذا
سمك السلمون . . . ولتحذر جيدا وأنت تقدم للقط طعامه أن تلجأ
لأى خداع بشرى . . أو تتصور أن القط حيوان ولن يميز بين قطعة
اللحم الجيدة وقطعة الشغت الرديئة . . أيضا أحذر أن تعتقد أن
القط لن يدقق كثيرا فى رائحة السمك أو اللحم ، ومن ثم تستطيع أن
تقدم اليه سمكا فاسدا أو لحما يوشك على التغير . .
سيضع القط أنفه على الطعام الفاسد ثم يرفع رأسه وينظر اليك
لا تبسم فالأمر ليس هزلا . .

ستقول نظرات القط الغاضب

□ هذا طعام فاسد . . أنت تريد قتلى أيها الوحش الآدمى
الذى يختبئ وراء قناع الانسانية الراقى . .
لن يأكل القط . . ولن يثق فيك بعد ذلك . .
وعندما يخسر الانسان ثقة قط ، فمن الصعب عليه أن يكسبها
بعد ذلك . .

ان القطط ليست مخلوقات ساذجة . .

ان قدرتها على تشمم الطعام واكتشافه . . لاتقل عن قدرتها فى
اكتشاف جوانب الشخصية الانسانية ومعرفتها . . والويل لك حين
يكشف القط الذى تربيته أنك مخادع .

أرررر . . . أرررر . . . أررررر
كان القط يقرأ . .
قربت يدي من رأسه فأبرز مخالبه . .
قدرت في نفسي أنه مشغول بشيء هام . . ولا يريد أن يزعجه
أحد . . ربما كان يصلي . .
وربما كان يذاكر لأن امتحانه صار على الأبواب . .
أبعدت يدي عن رأسه ومضيت أقرأ في كتاب المدرسة .
كان امتحاني يقترب مثل غول من غيلان الحوادث القديمة
المرعبة . .

لماذا خلق الله المدرسين والمدارس ؟
لماذا لا تكون الحياة مجرد حوادث من الجدات فحسب . ؟
لماذا تكون هناك امتحانات هدفها اعتصار التلميذ ومعرفة حظه
من الحفظ . ؟

لماذا يضربنا المدرسون ؟ ولماذا يقحمون على عقولنا كل هذه
الكمية المخيفة من المعلومات الثقيلة ؟
ان عقلي ينوء تحت ثقل هموم هائلة ، ولم يزد عمري على
العاشرة بعد . .
لماذا . .

ساءلت نفسي بيأس ، ثم أضاءت في ليل اليأس فكرة
متفائلة . .

□ لا ريب أن هناك مناطق أخرى ليست فيها مدارس . .
لا ريب أن على سطح كوكبنا الأرضي غابات تضم وحوشا . . وليست
فيها مدارس . . كنت أفضل العيش في غابة على الحياة في
مدرسة . . سمعني القط وأنا أدمدم بالعبرة الأخيرة . .

قال : أنت ساذج . .

سألته : لماذا

قال : ألا تعرف أن مهمة المدارس هى تخريج وحوش
كالغابات تماما . . الفرق بينهم وبين وحوش الغابات أن الوحوش من
بنى آدم يتحركون طبقا لخطة مدروسة وخرائط مرسومة ، وأنابيب
اختبار ، وشاشات رادار ، ومدفعية ميدان ، وصواريخ قادمة من
الفضاء ، تأمل الحروب وقل لى . . كيف يبدو منظركم فيها
كآدميين . .

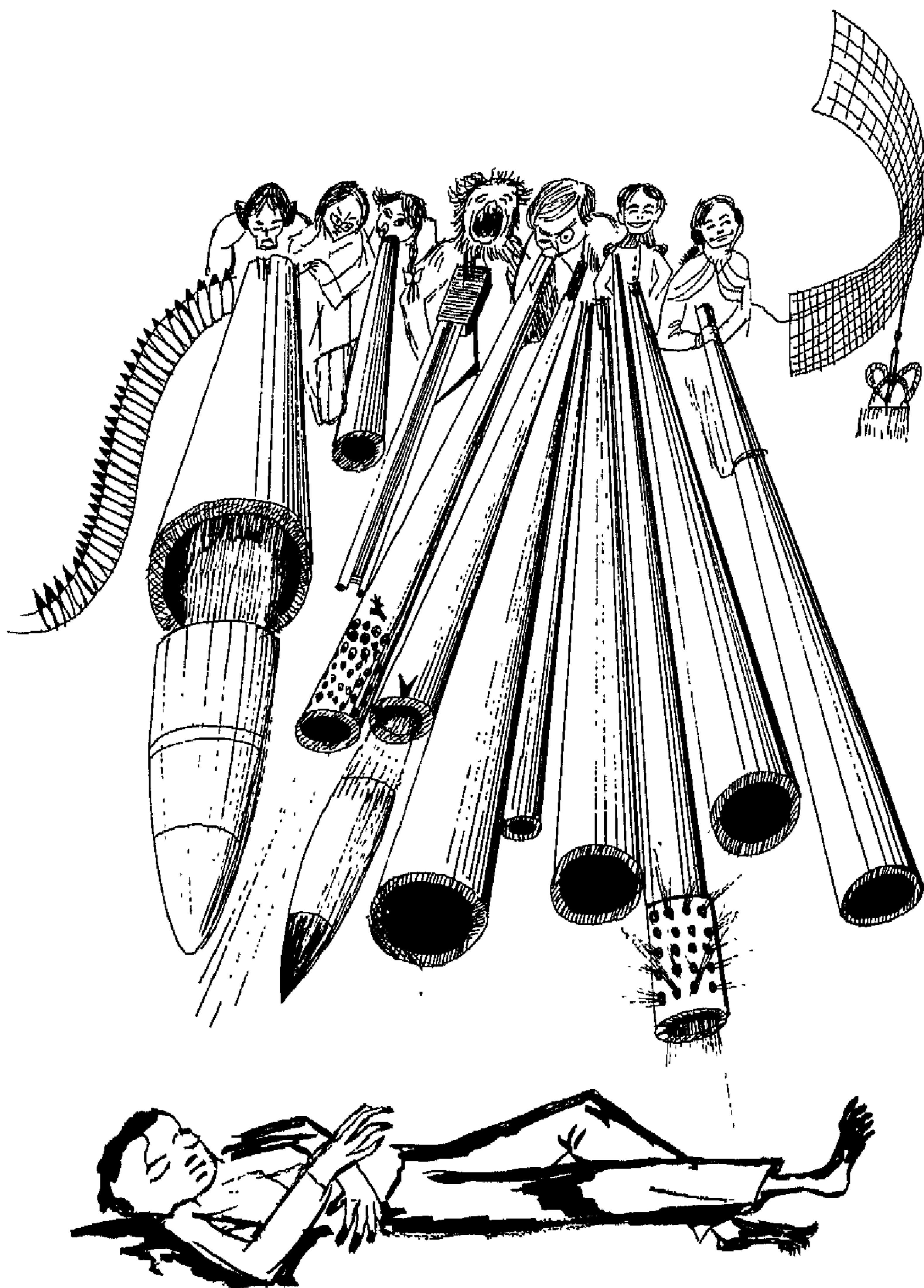
.

أدركت أن القط يتفلسف . . كانت تصيبه موجات من الفلسفة
لا أعرف السرف فيها ، وكان يقول بالصمت أحيانا ، أو بنظرة عينيه آلاف
الأشياء الصعبة التى لا أفهمها . .

لم أجاذبه أطراف الحديث . .

كنت محكوما بالخوف . . مثل القضاء الداهم أو الزلزال
المزلزل يقترب الامتحان . .

ان القط يتهمنا بالوحشية . . هاقد تحول الوحوش إلى
مخلوقات مسكينة بائسة ترتعش فى ملابسها من الخوف . . ورغم أن
الامتحان محدد فى يوم معين من أيام السنة . . وهو عادة آخر أيام
السنة . . رغم أن الامتحان معروف باليوم والساعة من أول أيام
السنة ، رغم ذلك كان الامتحان يفاجئنا دائما . . وكان يفاجئنى
بشكل خاص . كنت أكره أساسا فكرة أن يمتحن الانسان الكبير أخاه
الانسان الصغير . . وكانت هناك علوم أحبها وعلوم أكرهها . . ومواد
تستهوينى ومواد أنفر منها ، كان التاريخ يشبه مجموعة من الحوادث
الجميلة ذات المعانى التى تشبه حكايات جدتى . . أما الجغرافيا



فكانت طعاما لا يستطيع ذهنى ابتلاعه . . ولم يبق من كل دروس
الجغرافيا فى ذهنى غير عبارة تقول

حار جاف صيفا . . دافىء ممطر شتاء .

ولا أعرف أى بلد كان المقصود بها . . أهى مصر . . لم تعد
كذلك . . صارت حار رطب مخنوق صيفا . . بارد ممطر موحل
شتاء . .

ورغم أننى سأصير عندما أكبر عاشقا للأماكن . . الا انهم كانوا
يدرسون لنا الجغرافيا بأسلوب تقليدى بعيد عن الحب .

لم نر حتى تخرجنا صورة واحدة للسافانا مثلا . . وحين كبرت
فيما بعد سافرت لأفريقيا ، وسألت واحدا من الأفريقيين عن المشهد
الذى نراه . . قال ببساطة :

هذه هى السافانا . .

وكدت أتعلق برقبتة من فرط الفرح . .

أخيرا شاهدت السافانا . .

لماذا لا تكون الجغرافيا مجموعة من الأفلام والصور
والرحلات . . بلاش الرحلات . . ستقولون أن الرحلات كالشعر ،
والشعر صعب وطويل سلمه . . إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه . .

ستقولون أن العين بصيرة واليد قصيرة ، فلتكن الجغرافيا أفلاما
وصورا ثم نتحدث بعدها فى الجغرافيا .

ان الجغرافيا علم يقودك الى الله . . وكل العلوم تقودك الى
الله . . ولكن المدرسة المصرية صدت قلوبنا عنها جميعا ، وكادت
تصرفنا عن الله . . لولا أن تداركتنا رحمة الله . .

حتى حصص الدين كادت تكون حجابا عن الله . .

كنت أحب الله . . بفطرة سليمة تعترف لخالقها بالفضل ،
ورغم ذلك ، فقد نجحت دروس الدين أن تزرع فى نفسى رعبا مخيفا
من الموت والعالم الآخر والنار والجلود التى تشوى عليها . .
مرة أخرى كان منهج الدين وأسلوب التدريس مسؤولين عن
ذلك ، ولولا رحمة الله لخرجنا من المدرسة أكثر جهلا مما دخلناها .
والجهل الحقيقى أن تعرف معلومات كثيرة . . وتحب الله
قليلا .

الجهل أن تعرف دون أن تحب
والعلم أن تحب بعد أن تعرف . .
كنت طفلا ساذجا فلم أعرف الفرق بين الجهل والعلم . .
ومضيت أقرأ وأرتعش خوفا من الامتحان . .
كان أبى مدرسا ومن هنا فقد جعل البيت مدرسة . . ،
وكانت المدرسة بيتا ثانيا لى ، وحاصرني الرعب فى البيت
والمدرسة . . ولم أعرف ماذا أفعل . . توجهت إلى القط رغم أنه
أصغر منى حجما ومقدرة . .
قلت له : أنقذنى . . أو فكر معى . . ماذا أفعل . . ان
الامتحان يقترب . . وإذا لم أنجح فيه فسوف يتحول البيت إلى
الجحيم الذى حدثنا عنه المدرسة . . ستوقد نار كبيرة ، ويرموننى
فيها . . اننى خائف ومرهق . .
قال القط : كلام فارغ . .
قلت له : ماذا تقصد . .
قال : خوفك كلام فارغ . . أنت خائف لسبب فى ذهنك . .
لن تدخل النار ولن ترسب . . سوف تنجح . . أنت تسهر وتقرأ طوال
الليل فى كتب المدرسة . . من المستحيل أن ترسب . .

قلت للقط : أخطأت فهمى . . إننى أسهر طوال الليل حقا ،
وأقرأ طوال الليل فعلا . . ولكننى لا أقرأ فى كتب المدرسة . . هذه
قصص وروايات وكتب من كتب الأدب . .

قال القط : أرى أننا فى موقف سيء . .

قلت له : بدأت تفهمنى .

قال القط : تترك عملك وتفعل ما ليس مطلوباً منك . .

قلت له : تمام .

قال القط : هذه تصرفات تشبه تصرفات القطط . . أأكون قطاً

يرتدى ثياب البشر . . أم لعلك قط مسحور . .

قلت له : لا تمزح الآن وقل لى ماذا أفعل . .

قال القط : لو حدثتك عن حل حاسم وسريع . . ماذا تقدم إلى

مقابل ذلك . .

قلت له : نصف مملكتى لمن يأتينى بحصان .

قال القط : دعك من الكلمات المسرحية لشكسبير . . قل

لى . . هل تفتح الثلاجة وتحضر إلى صدر الدجاجة الذى وضعته
أملك فيها . .

قلت للقط : لكن هذا طعام أبى . .

قال : قل لهم أنك جعت فأكلته . . ان أملك تحب ان تراك

تأكل . .

قلت له : قلت لك أن هذا طعام أبى . . ستغضب أُمى

وسيفضب أبى .

قال : أملك تحبك أكثر مما تحب أباك . . ولن تغضب . .

وأبوك يحبك أكثر مما يحب نفسه . . ولن يغضب . .

لا تكن طفلاً ساذجاً . . . ماذا قلت . .

فكرت قليلا ثم قلت له : إذا أحضرت اليك صدر الدجاجة فهل
تنقذنى من الرسوب فى الامتحان ؟
قال القط : بل أدلك على طريق ينقذك من الرسوب . .
قلت له : كيف أضمن أنك تعرف طريقا . .
قال القط : ألم تسمع جدتك تقول « يوضع سره فى أضعف
خلقه » . .

قلت له : اتفقنا . . قل لى :
قال القط : وهو يلحس يده ويمسح بها وجهه وشواربه . .
- الدجاجة أولا . . سوف أحدثك وأنا أأكلها قطعة بعد قطعة . . .
ان الحديث يحلو مع الطعام . . أدركنى بصدر الدجاجة . . نهضت
مسرعا إلى الثلاجة . . فتحتها وأخذت صدر الدجاجة ، وعدت بها
إلى القط . . وضعتها فى طبقه وقلت له :
- حاول أن تأكلها بسرعة . نحن نرتكب الآن جريمة سرقة ، وسوف
نتبعها بجريمة انكار للسرقة . . أى سرقة وكذب . أى مصيبتان معا .
قال القط : لا تكن حنبليا إذا تعلق الأمر بالمعروف . . أنت
الآن تؤدى معروفا لمخلوق قد يكون أقل منك فى سلم الخليقة . .
لكن هذا لا ينفى أنك تصنع خيرا . .
قلت للقط : قل لى الآن ماذا أفعل لأنجح فى الامتحان . .
علما بأننى لم أذاكر . .

قال القط : وفمه مملوء بالطعام : انتظر حتى أبتلع هذه القطعة
الاخيرة . . هذه دجاجة طيبة . . اننى أشهد لوالدتك أنها طاهية
أنفاسها أطيب من أنفاس المسك والعنبر . .
قلت له : تقول جدتى ان الطعام نفس
قال القط : اراك متأثرا بجدتك . .

قلت : نعم . .
قال : لماذا لا تسأل جدتك عن طريقة للنجاح دون
استذكار . .

قلت للقط : أراك خدعتنى اذن . . دفعتنى إلى السرقة
وستدفعننى إلى الكذب ، وأنت لا تعرف شيئاً . . أنت قط مخادع .
كنت أتصورك نمرا مصغرا يعرف كل شيء .
قال القط : لو أحضرت اليك أعظم نمور الغابة فلن يستطيع أن
يقول لك كيف تنجح دون أن تذاكر . . أنت تطلب المستحيل
يا صديقى الساذج . .

قلت للقط : وبعدين . .
قال : ولا قبلين . . كم بقى على امتحانك
قلت له : اسبوع واحد . .
قال : اسمع . . هناك طريقة مجربة . . إقرأ أجزاء من الكتب
المدرسية كما تقرأ الروايات والقصص . . انس انها كتب مدرسية ،
حاول أن تنسى ذلك . . أعرف أن الاسبوع لا يكفى . . فى نفس
الوقت تستطيع أن تلجأ للصلاة . . أذهب إلى الله . .
قل له : يارب . . أريد أن أنجح . . ربما بارك الله لك فيما
تقرأ . . ربما جاء الامتحان فيما قرأت . . صمت القط برهة ليلتقط
أنفاسه ثم عاد يقول :

- هناك مسألة هامة جدا . . إلجأ إلى جدتك . . قل لها أن تدعو
لك لتكون من الناجحين . . إن جدتك تصلى ، ثم إنها
حجت . . من يدرى . . لعل دعائها يستجاب . .

.

بدأت أصلى . .

راقبني القط وأنا أركع وأسجد . . فلما انتهيت من الصلاة رأيته
يتمتم بشيء . . كان صوته خفيفا فلم أسمع . . قلت له : ماذا
تقول

قال القط :

صلى وصام لأمر كان يطلبه
فلما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما
قلت له : لعلك تقصدني بما تقول
قال القط : هذا شعر لواحد من الآدميين كنت أردده . . لم
أخترعه ولا كتبه . . لماذا تتصور أنني أقصدك به . . صحيح . .
صدق المثل العامي
اللى على رأسه بطحه يحسس عليها . .

.
.

غاضني القط . . ولكنه كان صادقا . . كنت أتبين داخل
نفسى - وأنا أصلى - احساسا بالانتهازية . . اننى اصلى تحت ضغط
الحاجة . . تحت ضغط الغرق . . ومن يدرى هل أداوم على
الصلاة بعد أن أنجو إلى البر ، أم أعاود مسيرتى فى الجحود . .
.

لجأت إلى جدتى أخيرا . .
رميت نفسى فى أحضانها وحدثتها أن الامتحان يقترب وأننى
سوف أرسب . .
قالت لى : سوف تنجح . . أنا أدعو لك فى الصلاة أن
تنجح . .

لم أكن قد قلت لها شيئاً ، ولم يكن القبط قد حدثها عن شيء
فكيف عرفت ؟

كيف تستجيب لى قبل أن أطلب منها أو أسأل ؟
أليس هذا مدهشاً . . نظرت إليها وقلت

□ أحكى لى حكاية ياتيته

قالت : كان يا ما كان . . يا سعد يا إكرام . . ما يحلا الكلام
الا بذكر النبى عليه الصلاة والسلام . .
قول . .

قلت لها : ماذا أقول ؟

قالت : قل عليه الصلاة والسلام . .

قلت : عليه الصلاة والسلام

قالت جدتى : فى قديم الزمان . . وسالف العصر والأوان . .
عاش ملك من الملوك الشجعان . .

كان إسمه . . إبراهيم بن أدهم . .

كان الملك غنيا يملك قصرا طوبة من ذهب وطوبة من فضة . .
وداخل القصر كانت السجاجيد الثمينة والأثاث والرياش والأبهة . .
وكان الملك يحب الموسيقى والغناء والشراب . . والبخور . . وكان
اتباعه الأمراء يعرفون حبه للموسيقى والطرب ، فهم يحضرون له
الجوارى وينتقون من بينهم أحلاهن صوتا ويعلمونها الغناء . . لتغنى
لملك البلاد السبعة .

وكان الليل إذا جاء انعقد مجلس الملك ودارت الموسيقى
ووضعت أطباق الطعام وأدير الشراب ولعلعت الضحكات .
ونقر الباب ذات يوم سيدان غريان لم يرهما أحد . .
سألا : هل صاحب هذا القصر أمير أم عبد .

قال حراس القصر : بل أمير .
قالا : نعم . . لقد قدرنا ذلك . . لو كان عبدا لا ستحي من
ربه . .

قال الرجلان كلمتهما وغادرا المكان . . وبلغ الأمير إبراهيم بن
أدهم هذا الحوار ، فانقذح في عقله معناه وأدرك أنه يتصرف في الدنيا
كمملك لا كعبد لله . . وخرج الأمير من ملكه فلم يعد إليه .
خرج من ماله وملكه وثرواته وارتباطاته وكل ما يشده إلى الدنيا ،
خرج إلى الجبال والصحراوات والأودية . . وانطلق في طريقه
الروحي بحثا عن الحقيقة الخالدة . . لم يعد يراه أحد . . وانطلقت
الشائعات تقول أنه صار شحاذا لا يجد قوت يومه .
ومرت سنوات وخرج أمير كان من اتباع إبراهيم بن أدهم يتمشى
على شاطئ نهر . .

وفوجيء هذا الأمير بإبراهيم بن أدهم وهو يجلس على شاطئ
النهر ويرقع ثيابه ، كان يمضى في عمله صامتا وهو يضع الابرّة في
ثوبه ويخرجها منه ويعاود وضعها فيه ثم يخرجها منه كي يخطط
الرقعة .

وقال تابعه القديم في نفسه : ما أغرب الزمن . . لقد كان هذا
الشيخ الفقير الذي جلس يرتق ثيابه ملكا على سبعة بلاد . . وهاهو
اليوم يجلس كالمتسول وهو يخطط ملابسه . .

وانكشف لإبراهيم بن أدهم تفكير تابعه القديم ، ولذلك القى
إبرته في الماء . . ثم ناداها . . فاذا آلاف الاسماك ، في فم كل منها
إبرة من ذهب ، قد رفعت رؤوسها من بحر الحق قائلة : خذ أيها
الشيخ إبرتك . . عندئذ التفت الشيخ إلى الأمير وقال له - مملكة
القلب خير أم ملكي القديم الحقير . .

.

كانت حوادث جدتى من لون لا يمكن فهمه أحيانا . . رغم ذلك ، كان غموض الحوادث يلهب افكارى بسعادة من يوشك أن يعثر على اكتشاف هائل . . .

وقد تم الاكتشاف فعلا ، وان لم أكن صاحبه ، اكتشفت أمى غياب صدر الدجاجة من الثلاجة . عرفت من البداية أن القط هو الذى التهمها . . قالت لنفسها

- معقول القط يقدر يفتح الثلاجة . .

سألتنى فقلت لها اننى استيقظت فى أثناء الليل فوجدت نفسى جائعا ففتحت الثلاجة وأكلتها . .

قالت أمى : احلف انك أكلتها . .

قلت لها : حدثنا مدرس الدين أن الحلف حرام . .

قالت : أكلها القط . . تسرق طعام أبيك وتطعمه

للقط . . أنت مجنون بلاشك . . انتظر حتى يحضر أبوك . .

إسمع . . كلمة أخيرة . . أنا أو القط فى البيت !

كانت أمى سيدة مذهشة . .

وكانت اماً عظيمة بنفس الدرجة . . كانت سيدة من

أصحاب التقاليد . . وكانت لها تقاليد فى كل شىء . . فى

الاثاث والطعام والحديث والتعبير عن المشاعر والجلوس وكل

شىء . . وكانت تحبنى حبا عميقا بوصفى إبنها الوحيد الذى

انفردت به بين ثلاث بنات ، ورغم ذلك كله فقد نظرت إلى

حادث اختفاء الدجاجة كجريمتين مرتبطتين . . تماما مثل السرقة

فى أثناء الليل مع استخدام سلاح . .

نحن هنا أمام ظرف مشدد . . الليل واستخدام سلاح . .

كان ما وقع للدجاجة يبدو فى نظر أمى خرقا لتقاليد
الاسرة . . وكانت هذه الجريمة فى بيتنا تشبه الخيانة العظمى .
بحشت عن القط لأقول له أن موقفنا قد تدهور ، ولكنى لم
أجده . . اختفى القط تماما وتركنى أواجه مصيرى وحدى . .
كانت أمى قد ألقت بتهديدها الرابع ، وقالت أنها ستحكى
كل شىء لأبى .

كان أبى رجلا مثلى ويمكن التفاهم دائما بين رجلين ، أما
أمى فكانت من جنس آخر ، ومن هنا فان التفاهم معها كان
يستحيل أحيانا .

جاء أبى اخيرا . . صمت البيت وهدأت حركته احتراماً ،
والقت أمى بالقنبلة قبل أن يخلع أبى ملابسه . .
قالت له : ابنك سرق طعامك وأعطاه للقط . .
كنت أتصنت فى غرفتى . .

لم أكن خائفا . . خيل الىّ أن أبى لن يهتم لأن الأمر يتعلق
بطعامه هو ، كان أبى رجلا كريما لم أعرف أكرم منه غير خالى على ،
وكان أخطر ما يهيمه هو النجاح فى المدرسة . . أما بعد ذلك فلم يكن
هناك شىء يعنيه أو يحسب له حسابا . .

أستمع أبى لأمى وقال لها
- الولد سيمتحن بعد أيام . . لا تزعجيه الآن حتى لا يؤثر هذا فى
امتحانه . .

قالت أمى : القط أكل طعامك . .
قال أبى : ولا تزعجيني أيضا . . أليس هناك طبق من
الفول . . أو قطعة من الجبن . . على أى حال . . لست جائعا . .

هتفت داخلى بحياة أبى . . وقفز القط من فوق ظهر الدولار
وكان يختبئ فيه . .

قال لى وهو يهبط برشاقة أعظم راقصى الباليه
□ هل زال الخطر . .

قلت له: رأيت أن تختفى فورا . . إن أمى ستذبحك لو رأته
الآن . . لقد هزمت أمى مرتين ، مرة منى ومرة من أبى ، ولا ريب
أنها تدبر لك المقصلة .

قال القط : يا ساتر . . تذبحون مخلوقا لأنه أكل شيئا من
نفسه . .

اقترب صوت أقدام أمى . . فقفز القط وعاد إلى مخبئه فوق
الدولاب . .

.....

دخلت أمى الغرفة . .

مثلت دور طالب مجتهد يذاكر . . رحت أقرأ فى كتاب
المدرسة وأنا أخشى أن يصدر القط صوتا من فوق مخبئه فيدل
عليه . . قالت أمى :

□ بتذاكر والا لأ . .

قلت لها : بذاكر .

قالت : سيب المذاكرة وقوم اتعشى مع أبوك . . كانت أمى
تهتم بشيء أساسى هو الطعام . . كان يهمها فى المقام الأول أن
أكل . . وكان أبى يهتم بشيء جوهرى هو النجاح . . كان يهتم فى
المقام الأول أن أذاكر وأنجح . . أما جدتى فلم تكن تهتم بشيء . .
كانت تهتم بشخصى . .

لم تكن تضغط علىّ لأكل مثلما تفعل أُمى . . ولا كانت تضغط
لأذاكر مثلما يفعل أبى . .
لم تكن تضغط علىّ . . كانت تحبنى كما أنا . .
وكان هذا يكفينى تماما . .

.....

رغم مرور الأزمة دون تفاقم ورغم استمتاعى فى
الظاهر بهدوء نسبى نتيجة اقتراب الامتحان . . فقد أضيف هم جديد
إلى هم الامتحان . .
ذلك ان وجود القط بات مهددا فى البيت بعد أن توعدته أُمى
بالويل والشبور وعظائم الأمور .
كنت أعرف أُمى . .
لم تكن مثل الدول الصغرى التى تتكلم كثيرا وتعتبر أنها قد
فعلت . .

لم يكن الكلام عندها يقوم مقام الفعل . .
كانت أُمى دولة كبرى . . وكان كلامها يتحول سريعا إلى
فعل . . ويبدو ان ذكاء القط أو ثقافته أسلمته لنفس الاحساس . .
فقد كان يختفى تماما طالما أن أُمى موجودة ، فاذا دخلت غرفتها
وأغلقت الباب ظهر ، وفى عينيه قلق . .
كنا معا . . ننتظر معجزتين . .

معجزة نجاحى . . ومعجزة اقناع أُمى ببقائه . .
وكانت كل معجزة منهما تحتاج إلى تجنيد كل قوى الدعاء فى
مملكتنا الصغيرة . .

وقلت لجدتى : ادعى ياتيه إنى أنجح . . وإن القط يفضل
قاعد معانا . .

ضحكت جدتى وهى تحرك حبات مسبحتها الصندل وهى تتمتم
بتسبيحاتها ، وقالت : يا واد ما تضحكنيش وأنا بذكر ربنا . . ! !

.

.

« الله لطيف بعباده »

الكلمة مكتوبة على طبق عربى جميل . . كتبت فى تركيا ،
وربما كان الطبق أثريا . . على أن هذا كله ليس مهما . . المهم أن
الكلمة موجودة دائما . . ومعلقة فى فضاء غرفة مكتبى . .
لم أستطع أن أقاوم شراء الطبق أول مرة رأيته فيها وكان عمرى
أربعين سنة . . ان اللطف الالهى بالعباد يقين يحسه قلبى منذ
الطفولة . .

« الله لطيف بعباده »

ظهرت المعجزة الأولى بعد امتحانى بأيام . . لست أعرف
كيف نجحت . . المدهش أن الصفحات التى اخترتها من كتب
الدراسة لأقرأها - طبقا لنصيحة القط - كانت هى نفسها المواضع التى
جاءت منها أسئلة الامتحان . .

سألنى القط : ماهى أخبارك

قلت له : وقعت المعجزة الأولى . .

قال : استمر فى الصلاة طلبا للمعجزة الثانية . .

لم تنتظر المعجزة طويلا لتقع . .

كانت أمى تكره الحشرات المنزلية كالصراصير ، فى نفس
الوقت الذى تخاف فيه من الفئران . .

وكانت تشن على الصراصير حربا لا هوادة فيها ، ولم يكن أى
صرصار يجرؤ على الظهور فى بيتنا . .

انه يباد قبل أن يكتشف أنه أخطأ المنزل . .
من هنا يمكن تصور الفزع الذى أصاب أمى حين ظهر فأر
صغير ، وانسل يجرى كالبرق نحو إحدى الغرف . .
جن جنون أمى . .

صعدت على كرسى وصرخت أن فى البيت فأرا . .
اندفعنا جميعا نحو الغرفة ووقفنا على بابها وقد هزنا
الانفعال . .

فى البداية استولى الارتباك والرعب على الساحة ، ثم وقف
الجميع مسمرين فى أماكنهم . .
فى هذه اللحظة التاريخية . . ظهر القط . .

تماما مثل شجاع السينما الذى يظهر فى الوقت المناسب . .
فيزيح الناس ثم يدخل وهو يمشى على مهل . .
بعدها يواجه رئيس العصابة وحده ، قائلا من بين أسنانه
□ دعوا الوغد لى . .

كان القط يمشى على مهل ، كأن الموقف سلام لا حرب . .
دخل القط الغرفة التى دخلها الفأر قبله . .
بعد ثوان كان يخرج من الغرفة وهو يحمل الفأر الصغير بين
أسنانه .

صفقت الجموع للزعيم الجديد الذى ولد من حاجة
الجماهير اليه . .

صار القط بطلا . .

فتح القط فمه فسقط الفأر منه وعاد يجرى . . قفز القط
قفزتين رشيقتين صار بعدهما أمام الفأر ، وضع يده على ظهر الفأر

فتجمد الفأر من الرعب . . غرس القط انيابه فى لحم الفأر
فأصدر الفأر صوتا مذعورا يشبه الأنين اليائس . .
فجأة ترك القط الفأر ورفع يده عنه وأشاح بوجهه كأنه
لا يراه . . لم يصدق الفأر ما حدث . . نظر إلى القط فوجده
لا ينظر اليه . . مادام لا ينظر اليه فهو لا يراه . . هاهى النجاة
تدرك الفأر مثل نعمة رائعة . . انطلق الفأر يجرى حتى وصل إلى
نهاية الغرفة .

ظل القط يبدى لا مبالاة مسرحية عجيبة ، حتى إذا أقرب
الفأر من باب النجاة كان القط قد قفز وصار أمامه . . ثم بخ
القط . .

تحول القط من قط وديع إلى نمر مفترس . .
تقوس ظهره ونفش جلده كله ورفع ذيله . . فوجيء الفأر
أنه أمام شبح . . خيل إلى الفأر أنه يمر بكابوس مروع . . لم
تكن هناك أى علاقة بين هذا النمر المقوس الظهر والقط
الوديح . . كان القط يبخ . . هو صوت يشبه تماما صوت النمر
حين تغضب . . ان الصوت ليس عاليا . . ورغم أنه يأتى من
قرار الروح الا أنه يتحول عندئذ إلى جواب يستدعى كل مرعبات
الحياة ومخاطرها . .

توقف الفأر مشلولاً أمام القط . . ضربه القط ضربتين
سريعتين على ظهره . .

كل ضربة منهما كانت تترك فى ظهر الفأر ما تتركه ضربات
السياط فى ظهر المحكوم عليه بالجلد . . خيوطاً طويلة حمراء
ينعقد الدم عند أطرافها . .

.

كانت أمى تشهد الصراع بين القط والفأر . . لم يكن
صراعا متكافئا أو نصف متكافىء . . .

نحن أمام مذبحه ظهرت فيها قسوة القط وحيوانيته
بجلاء . . كان القط يعذب الفأر عذابا نفسيا . . انه يضربه ضربا
هينا غير موجه ، ثم يشيح عنه ببصره فيجرى الفأر ، حتى إذا ظن
انه نجا أدركه القط وعاد يشله . . ثم تتوالى المشاهد . . أمام
جمهور يتأمل بطولة البطل . . وهى بطولة بلغ من قسوتها ان
مشاعر الجماهير المتحمسة الغاضبة الخائفة ضد الفأر ، لم تلبث
أن بدأت تتحول تدريجيا إلى التعاطف مع الفأر . .
حين كاد يقع على المسرح ما يسمونه إنكسار الذروة
وعودتها إلى القاع . .

حين كاد يحدث هذا ، وأدرك القط أن جمهور الحلبة
يوشك أن يهتف ضده . . أمسك القط ضحيته بين أسنانه وانسل
هاربا به خارج الغرفة . .
ثم عاد يمسح فمه وشواربه بيده . .
.

طارت قصة الفأر وسط المنزل الذى نعيش فيه والذى
نسكنه . . وصار القط بطلا يستوقفه الأطفال ويطلبون توقيعه على
الواتوجراف . . ولم يعد القط يجد وقتا يقضيه معى ، وصار
يقضى معظم أوقاته يتكلم فى التليفزيون والاذاعة . . ويرد على
تحية الجماهير . .

على أن أهم ما فى الموضوع كله ، ان أمى قررت فجأة أن
وجود القط فى البيت نعمة . .

وان هذا القط بطل حقيقى . . وان موقعة الفأر الشهيرة
كانت موقعة لا تقل عن أى موقعة عسكرية . .
نجح القط ان يقنع أمى ببطولته . . وخيل إلى وأنا خبير به
ان هناك شيئا يشبه رائحة السمك فى الموضوع . . خيل الى ان
القط خدع امى . . لكننى لم اعرف كيف ؟
أخيرا خلوت به . .

قلت له : لم أرك منذ زمن . .
قال : للبطولة أعباء .
قلت له : كانت مفاجأة ظهور الفأر فى البيت فجأة . .
قال القط : هذا فأر كومبارس ، اتفقت معه على القيام بهذه
التمثيلية أمام أمك حتى نقنعها بأهمية وجودى فى البيت .
قلت للقط : لكنك مزقت الفأر تمزيقا . .
قال : كان هذا تمثيلا لاتمزيقا . . ماذا نفعل . . أكل
العيش يحتاج إلى بطولة ، والبطولة تحتاج إلى ألا عيب
مسرحية . .

أرأيت كيف أجاد الفأر تمثيل دوره . .
قلت له : مالت مشاعرى نحوه بالعطف . .
قال القط : هذا هو عيب المسرحية الوحيد . .
انكسرت الدورة ، ولكننى لحقتها وسحبت الفأر خارج
المسرح حيث قال لى
□ لقد كدت تقتلنى . .

قلت له : معلش . . كان الدور يحتاج إلى عنف .
ثم اعطيته قطعة من الجبن وأطلقت سراحه . .

قلت للقط : كان أجر الفأر قطعة من الجبن . . ألم تظلمه قليلا . .

قال القط : قلت لك ان هذا الفأر نكرة . . لم يظهر قبل ذلك فى دور رئيسى أو نصف رئيسى . . .
كان دوره معى هو البطولة، كان هو الضحية الضعيفة . .
وهذا أول دور له فى البطولة . .

قلت له : الجمهور ينظر اليك كبطل . . ماذا لو ظهر فأر حقيقى شرب من صدر أمه وهاجمك .
قال القط : ربنا يستر . . دعنا من المخاوف الآن ولنحتفل معا بالنصر التمثيلى الذى شهدته قومك . .
قلت له : ماذا تريد . .

قال : سئمت من اللحم كل يوم بعد معركة الفأر . . أريد أن أكل طبقا من السمك المشوى . . ولا بأس ببعض الجمبرى . . مع سمك السالمون المخلل . . ولتكن الشوربة شوربة سمك أيضا .
هيه . .

ماذا قلت . .

لم أقل للقط شيئا . .
كان القط يحلم كعادته أنه يجلس فى مطعم مكسيم . . أو يجلس فى أبى قير على البحر وقد امتدت أمامه أطباق الأسماك والجمبرى . . وتصاعد من البحر عطره . . أو زفارته . .

.....

.....

قال مدرس الدين فى السنة التالية وهو يشير إلى . . أجب
عن السؤال التالى :

- لماذا خلقنا الله . .

قلت له : لعبادته . .

قال : اذكر الآية . .

قلت : « وما خلقت الانس والجن إلا ليعبدون . . ما أريد
منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . . ان الله هو الرزاق ذو القوة
المتين » .

قاطعنى المدرس : خطأ . . قرأت الآية خطأ . . قال تعالى :
« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » . . الجن قبل الانس . .
خلقهم قبل الانس . . اجلس يا أفندى . . جلست وفى نفسى سؤال
يتردد . . سؤال خشيت أن أسأله للمدرس . .
□ لماذا خلق الله القطط . .

خشيت ان يعتقد المدرس اننى قد جننت . . قلت لنفسى أسأل
صاحب الاختصاص الاصلى . .

قلت للقط : اجب عن السؤال التالى : لماذا خلقتك الله .
قال القط : هناك الف أجابة واجابة على سؤالك . . بأى
واحدة تحب أن نبدأ . .

- قلت له : إبدأ بما تحب

قال : تعتقد أمك أن الله قد خلقنى لآكل الفئران وأحميها
منها . . أنا حارس عند والدتك إن صح هذا التعبير . . حارس العزبة
كما تقولون . . ولا عزبة هناك ولا ضيعة ولا يحزنون .

بالنسبة لك تعتقد أن الله قد خلقنى قتا ليلعب الاطفال
الساذجون مثلك بصورة مصغرة لنمر . . أما الحشرات والفئران فتعتقد

أن الله خلقنا لتدميرها . . أما قدماء المصريين فاعتقدوا اننا آلهة
معبودة ، للأسف عبدونا ، وكان مركز عبادتنا هو تل بسطة . .
تأمل تغفيل اجدادك الوثنيين . . لقد كنا فتنة لهم دون أن
يعرفوا . . لا تقل لى أننا مذنبون ، نحن نبرأ منهم .
أما العلماء اليوم فيرون فى وجودنا لونا من ألوان التوازن
الكونى . . فلو هلك القطط فى الارض ، لأكلتكم الفئران . . ولو
هلك الفئران كلها لماتت القطط جوعا . .
المسألة معقدة كما ترى . .

قلت له : لماذا لا تكمل كلامك
قال القط : لماذا لا تكمل انت سؤالك . . . أنت تسألنى
لماذا خلقت الله . . المفروض ان تكمل السؤال وتقول :
□ لماذا خلقت الله رغم أنه ليس فى حاجة اليك . . ان السؤال
بهذا الشكل ينطبق على جميع الخلائق . .
لماذا خلق الله الخلائق وهو فى غير حاجة اليها . .
الجواب : أنه خلقها لأنها فى حاجة إليه ، خلقها عطاء منه
وتكرماً . . هذا هو سبب الخلق . .

لقد انصرفت مشيئة الله تعالى إلى الخلق
فاض عطاؤه وفاضت رحمته على العدم
كان الكون عدماً وكنت جزءاً من العدم . وكان الكون كله ظلمة
وكنت جزءاً من الظلمة

ثم أنارنا ظهور أمر الحق . .
اصدر الله تعالى أمره إلى العدم
قال « كن » وهى كلمة من حرفين . سمع العدم أمر الله تعالى

رغم أنه بلا أذن ولا سمع . استحى العدم حين كلمه الله تعالى فصار
وجودا يموج بالحركة .

لقد همس الحق فى أذن الوردة من قبل أن تخلق الوردة فجعلها
تبسم بالعطر . . وتحدث إلى الحجر فكان منه عقيق المنجم . .
وتلا آية على الجسم فأصبح روحا . . وكلم الشمس فأضاءت
بالاشراق . . ثم عاد وألقى فى سمعها بكلمة رهيبة فوقع على وجه
الشمس مائة كسوف .

أى قول ألقاه الحق فى سمع السحاب ، فصب من أعينه
الدموع ؟ وما الذى تلاه الحق على سمع الارض فصارت مراقبة
ولزمت الصمت . .

لا أحد يدرى

كل ماندرية من الموقف كان موقف عطاء الهى شامل
من العسدم إلى الدخان إلى . الماء إلى بلايين النجوم إلى
قطعة الصلصال إلى الخلية الحية إلى بلايين الاشكال من الجن
والإنس والقطط والكلاب والنبات والجماد .
قلت له : لا تقل لى ان هذا كله كلامك .

قال القط : إيتونى بأعظم آلات الغناء ، واستدعوا روح
الموسيقى من قلب الكون ، ودعونى أتغنى بأشعار سيدنا ومولانا جلال
الدين الرومى فى المثنوى المعنوى

.....

كيف يخرج من قلب الانسان شغله الاول ؟ وكيف يفترق عن
فؤاده أول حب ؟

لقد كنت أنا أيضا من سكارى هذه الخمر ، وكنت فى حضرته
من العشاق .

واننى قد استقبلت الحياة على محبته ، كما أن عشقه كان قد
غرس فى روحى .
ولقد لقيت من الزمان أياما طيبة . كما أننى إحتسيت مياه
الرحمة إبان ربيعى .
ألم تكن يد فضله هى التى غرستنى ؟ أليس هو الذى قد
أخرجنى من العدم .

.....

وما أكثر ما كنت قد شهدت من ألطافه ، ولكم تجولت فى
بساتين رضاه .
إنه كان يضع فوق رأسى يد رحمته ، وكم كان يفيض ينبيع
اللفظ منها .
وفى وقت طفولتى ، حينما كنت رضيعا ، من ذا الذى كان يهز
مهدى . . . إنه هو .
وهل كان لى حليب احتسيه غير حليبه ؟ ومن الذى رعانى غير
تدبيره .
وكيف يمكن أن تنفصل عن المرء تلك المحبة التى دخلت كيانه
مع الحليب .

.....

مرت الايام وكبر القط . .
ازداد رشاقة وجمالا وأنانية . . انه يقفز من أقصى الغرفة إلى
أقصاها كسهم ضوئى ينطلق بلا صوت . . وهو يمارس ألوانا من
الشقاوة ويمر وسط الاكواب الزجاجية والاطباق دون أن يلمسها أو
يكسر منها شيئا . .

وكثيرا ما تأملت ليونة جسده . . . وكنت ألاحظ أنه يقفز في الهواء قفزة خطيرة تكون أقدامه لأعلى وظهره لأسفل ، ولكنه قبل أن يصل إلى الأرض ، يعتدل ويهبط على الوسائد المدهشة في أقدامه الأربعة . . . وقلت لنفسى

□ ماذا لو جربت أن القيه بنفسى بعد أن أمسكه من أقدامه الأربعة وظهره إلى الأرض . . .

وفعلت هذا أكثر من مرة . . .

وفى كل مرة ، كان القط يعتدل فى الهواء ويهبط هبوطا طبيعيا على أقدامه . . . وكررت اللعبة فمد يده وخربشنى .

قلت له : ماذا أصابك

قال : ماذا أصابك انت . . . هل جنت . . .

قلت له : هذه تجربة علمية أيها الاحمق ، أحاول عن طريقها اكتشاف سر من أسرار القطط .

سألنى : أى سر

قلت : السر الذى يجعلك تعتدل فى الهواء مهما حدث لتنزل سالما فوق أقدامك . . .

قال : ليس هناك سر سوى اننى قط . . .

فاجأنى الجواب ببساطته ، وأحسست أن القط يخفى عنى سر رشاقته لأسباب أنانية . . .

وفى المرة الوحيدة التى حاولت فيها تقليد القط بالنزول من فوق السرير وظهرى إلى الأرض مع محاولة الاعتدال قبل الهبوط إلى الأرض ، فى هذه المرة . . . أوشكت النتيجة أن تقصم ظهرى ، ولم أعد أحاول تقليد القط فى رشاقته ، وأدركت أن لكل مخلوق امتيازات خاصا لا تعرفه بقية المخلوقات . . .

لم تكن الرشاقة هى وحدها امتياز القط . . كشف مرور الايام
عن امتياز آخر .

كان القط صيادا حاذقا . .

ان أى شىء يتحرك ، سواء كان ظاهرا أو خفيا ، يشير على الفور
اهتمام القط ويدفعه إلى الهجوم عليه ، وقد جربت أن أحرك اصبعى
تحت الملاءة مثلا ، فاذا القط يندفع وينقض على اصبعى ويقبض
عليه بمخالبه ثم يقرمه بفمه . .

وقد تخصص القط فى صيد الصراصير . .

كانت الصراصير فى بيتنا شيئا نادر الظهور ، ان نظافة امى
واشرافها الدائم على البيت لم تكن تسمح لأى صرصور بالحياة ،
ولكن منور البيت كان يضم مجموعة من الصراصير التى تجرأ احدها
يوما ودخل بيتنا . .

لم يكد يجرى على ارض الصالة حتى كان القط فوق رأسه . . .
ضربه القط ضربتين سريعتين بيده فتوقف الصرصور ذاهلا . .
ترك القط الصرصور فجرى هذا سريعا جهة اليسار ، قبل أن
يغيب تحت الكنبه كان القط قد لحقه ووضع يده عليه . .
غرس القط مخالبه فى الصرصور . . بعدها تلاشى الصرصور
ومسح القط شواربه . .

كان القط يمارس هوايته فى الصيد برشاقة بالغة . . وبدا لى
مثل لورد انجليزى تقليدى خرج لصيد الثعالب . . فلم تنجح الرحلة
رغم اثارها فى تبديد سأمه الذى صار سمة مميزة له . .

.

أطفأت امى نور الغرفة وقالت بلهجة أمره :

- يجب ان تنام الآن . .

لم أكن أريد أن أنام . . . كنت أرتعش بخوف داخلي لا أريد أن أفصح عنه . . . شاهدت فيلما في السينما عن الغابة ، وكانت الشعايب الضخمة تتسلل من بين أشجار الغابة المظلمة ، وكان اطفاء نور الغرفة وغرقها في الظلام كافيا لبعث صورة الشعايب في عقلى . . . وجلست فى الفراش بعد ان اطفأت أمى نور الغرفة . . .

خيل إلى أنى سمعت صوتا ما . . .

صوت فحيح ما . . .

نظرت فى الظلام حولى فلم أر شيئا . . .

قفزت نحو النور وأضأته . . . لم يكن هناك سوى القط . . .
كان ينظر إلى مدهوشا . . . وضأقت عينيه رويدا من الضوء القوى . . .

قال لى : ماذا حدث . . .

قلت له : أنا خائف . . . ان صور الشعايب تتراءى لى
قال وهو يلحس يده ويمسح وجهه وشواربه بها : لا تخف . . .
ان الشعايب لا تقترب من مكان فيه قط . . .
لم أصدقه فى البداية

ظننت انه يزهو كعادته . . . ولم أعرف حقيقة قوله الا بعد أيام . . . اشتريت لعبة من البلاستيك على شكل ثعبان . . . وحركتها أمامه فتغير القط تماما . . .

تقوس ظهره ، ونفش ذيله ، وبرزت مخالبه ، وراح يبخ . . .
تماما مثلما تبخ النمر حين تقرر الهجوم الصاعق . . .
مد القط يده وانهاه ضربا على الثعبان البلاستيك . . . كان يضرب بسرعة البرق ثم يرفع يده بنفس السرعة . . .

وكان يقفز فجأة جهة اليسار ويوجه إلى الثعبان ضربتين ، ثم يقفز شمالا ويضرب ، ثم يغير مكانه ويضرب . . وفى كل مرة كان الضرب يصيب الثعبان من حيث لا يحتسب . . بعد ثوان كان رأس الثعبان اللعبة ممزقا إلى قطع صغيرة . .

قلت للقط : أيها الاحمق . . ماذا فعلت . . لقد كنت أمزح معك . . لقد أفسدت اللعبة . .

قال القط : لا تلعب معى بعد ذلك بالثعابين . . أنت لا تعرف قلت له : لا اعرف ماذا

قال : أنت لا تعرف عداوتنا للثعابين . . من بين جميع المخلوقات التى خلقها الله ، ليس للثعبان من كفاء سوى القطط . . ان العداة بيننا سحيق . .

زاد احترامى للقط . . وزاد احساسى بالأمن وهو ينام فوق اقدامى . .

قبل أن أرى القط . . لم أكن أمد قدمى فى الفراش خوفا من تسلل ثعبان من أشجار الغابة نحوى فى الحلم . . ثم جاء القط وورق فوق اقدامى . . وقلت أمد اقدامى فلا خوف الآن من غدر الغابة . . ولا خوف من مرعبات الاحلام . ان حارسا عظيما يقف على ابواب الغابة . .

.

حارسا بلا اسم . . أو حارسا له أكثر من اسم . . ناديت القط يوما فلم يرد . . سألته . . ماذا أصابك . . لماذا لا ترد . .

قال القط : ليس هذا اسمى . . قلت له : ان العائلة كلها تعرفك به

قال : ألا تعرف ان للقطط أكثر من اسم . . ألم تقرأ قصيدة
ت . اس . اليوت فى ذلك . . قلت له : لا . . حدثنى عنها . .
قال القط : أى جهل . .

اسمع . . سأحدثك عن مضمون القصيدة بسرعة . .

لعلك تميل إلى اعتبارى مجنوناً

لو حدثتك ان لكل قط ثلاثة أسماء مختلفة . .

فى البداية . .

هناك اسمه الذى تطلقه عليه العائلة وتعرفه به

وهناك اسم آخر يطلقه على القط صاحب القط الاثير . .

اسم فيه كبرياء . . اسم غريب . .

وهناك اسم ثالث . . اسم يصعب على الذهن البشرى أن يكتشف

اسراره أو يهتدى لحل طلاسمه . .

اسم يعرفه القط بنفسه . . ولكنه يعرفه كسر لا يقوله أبدا . .

سر لا يفشيه أبدا . .

وعندما تجد قطا يجلس ساهما قد استغرق فى ذاته . .

فتق انه يفكر فى اسمه الخاص الذى لا يعرفه البشر

اسمه السرى

.....

حاولت أن أعرف اسم القط الخاص فلم أفلح . .

وعدت أن أقدم اليه كل ما يشتهي من أسماك وطيور ولحم ولكنه

كان يساوم على اسمه الثانى . . اما اسمه الثالث . . اسمه السرى ،

فقد رفض أن يحدثنى عنه ، فلما ألححت عليه طويلا قال انه

نسيه . .

وواعد ان يقوله لى عندما يتذكره . .

وطوال الفترة التي عاشها معي لم يتذكره أبدا . . أو هكذا
زعم ، وظل يحتفظ بسرّه داخل قلبه الموصد . .

.....

ثم وقع الحادث . .
كيف وقع . . لست أدري . . ولعل النعومة التي تم بها كانت
هي الستار الذي أخفاه حتى وقع .
لم أكن أتصور أن ينعطف قلب القط ، أو تتحرك ارادته نحو
الحب . .

كنت أحب ابنة الجيران . . وكان للقط موقف واضح من
الحب ، حدثته يوما أنني أحب . .
لم يحفل بما قلت . .
قلت له : انني عاشق . .

صمت القط لحظة ثم قال ببرود : أعظم أنواع العشق عشقك
لنفسك

قلت للقط : هذا جوهر الانانية
قال : بل جوهر الحكمة . . أنسيت أنني حيوان . .
قلت له : أنت حيوان
قال القط : أنا حيوان وأنت طفل لم تكبر بعد . .
قلت له : انت لا تعرف كم أحبها . . لقد صار وجودها هو
العطر الوحيد في حياتي . . صار هو المعنى . .

قال القط : الحب البشري طفولة قلب ، هو حماقة إذا تجاوز
حدوده . . وانما يصير نضجا وحكمة إذا كنت تحب المصور لا
الصورة . . وترى كل ما تراه من جمال بشري اثرا من آثار ابداعه . .
قلت له : لست أفهمك

قال : ستفهم عندما تكبر . .
قلت له : أنا كبير لأننى أحب .
قال : هذا أول وهم ساقه الحب اليك وأقنعتك به . .
قلت له : كيف تنكر الحب وأنا أحبك .
قال : نحن حلفاء أو أصدقاء . . فلا تخلط بين الصداقة
والحب ، ولا تخلط بين الاعجاب والحب . . ولا تخلط بين الحاجة
إلى الحب والحب فى ذاته . .
ان الحب طاقة هائلة . . وتوظيف هذه الطاقة فى مشروع غير
مضمون النتائج ليس سوى حماقة . .
الافضل ان توظفها فى خدمة نفسك . .
قلت له : ماذا تعنى . .
قال : اعنى انك ستحب خلال السنوات القادمة عشرات
الوجوه ، وعشرات الصور . . وكلما تقدم بك العمر ستحب اكثر . .
قلت له باصرار غاضب : لن أحب احدا بعدها . .
قال القط : انت تكمل كلامى . . هذا ما ستقوله فى كل مرة
تحب فيها . . ستقسم لها على صدقك بضوء القمر . . أنت
تكذب . . لاحظ ان القمر من المخلوقات التى لا تثبت على حال . .
من بدر إلى هلال إلى لا شىء . . انت تقسم لها على حبك . . انت
تكذب .
أو لعلك صادق مؤقتا . . والصدق المؤقت لون من ألوان
الكذب . هو صدق فى لحظة زمنية ما . . وهو كذب فى لحظة زمنية
اخرى . .
قلت له مهموما : هل افهم من قولك ان حبنى لابنة الجيران
سوف ينتهى ذات يوم . . هل تلمح إلى اننى لست مخلصا . .

قال القط : دعنا من التلميح . . . لننتقل إلى التصريح . . . اننى
أنصحك ألا تكون مخلصا . . . لم تزل صغيرا . . . ولم يزل قلبك
تستهويه الصور . . . والصور تتغير . . . والتعلق بالتغير يعنى التغير . . .
إذا كان كل شىء يتغير . . . الا ترى ان الثبات على حبك لذاتك افضل
من قلق الرحيل بين حب له ثبات القمر . . .

فكرت قليلا فى مضمون كلماته وقلت له
- انت نفعى وأناانى . . . هذه فكرة نفعية بحثه ، وهى فكرة تخلو من
أى نبل حقيقى . . .

كيف تكون حريرى الملمس صوفى الباطن وفيلسوفاً وحكيماً
وانانياً ونفعياً فى نفس الوقت . . .
اننى لم أعد أفهمك .

قال القط وهو يلحس يده ويسوى بها شواربه
□ اعترف ان مذهبى هو النفعية . . . واعترف اننى متناقض .
ولكن ماذا أفعل . . . هذه حقيقتى . . . ثم قل لى بربك . . . اى عيب
تراه فى النفعية . . . اليس النفعية هى المسئولة عن قيام المدنية
الأمريكية والمجتمع الأمريكى . . . ان هناك دولة نفعية تحكم العالم
دون أن تلقى بالاً لرغباته ، على اساس انها تعرف مافيه خير العالم
اكثر مما يعرفه العالم . . .

كيف تقاوم القطط هذا النموذج الناجح الذى تقدمه امريكا . . .
كيف تقاوم القطط إذا كان البشر لا يقاومون .
صمت القط وقال فجأة :

- سئمت من الكلام فى السياسة . . .
سألت : عندكم سياسة مثلنا . . .

قال القط : طبعاً . . . ان البوليتيكا ليست وقفا على البشر

وحدهم . . . عندنا بوليتيكا مثلكم واكثر . . . هل ترى الخرابه
المجاورة . . . انها هى المسرح . . . ان هناك من يحاول أن يصير
زعيماً فيها ولكننى أرقب الموقف . . .
ان اللحظة المناسبة لم تقبل بعد . . .

.

لم أفهم
لم أعرف
لم أتصور أن ما حدث يمكن أن يحدث .
كانت كل الدلائل تشير إلى كراهية القط للحب . . . وللجنس
القططى الآخر .

ثم جاء الشتاء . . .
كان القط قد بلغ فى القطط مبلغ الرجال . . . ولا حظت يوماً أنه
يتأمل قطه بيضاء فى الخرابه المجاورة . . .
كانت القطه هزيلة عجفاء . . . ولم يكن ذيلها جميلاً ، وكانت
أحدى أذنيها أصغر قليلاً من الأذن الأخرى . . .
ورغم كل عيوبها فقد وقع القط فى هواها . . .
سأله يوماً : هل تعجبك هذه القطه الهزيلة . . .
قال : ليست هزيلة . . .

قلت له : ان أحدى أذنيها
قاطعتنى القط قبل أن أستطرد . . . لماذا يحاول البشر الحكم
على القطط قبل ان يحكموا على انفسهم . . . لماذا تخرج القشه من
عين زميلك وتنسى الخشبة فى عينيك . . . لماذا لا تنظر إلى أذنك
انت فى نفس الوقت الذى تستخرج فيه القطط الفطساء من أذن
القطه . . . كان القط يهاجمنى . . .

وادركت حساسية الموضوع بالنسبة اليه ولم أعد إلى الحديث فيه . . ثم جاءت ليلة شتائية قاسية . .

خرج القط إلى البشرفة وراح ينونو نونوة متصلة صارخة تقول - داود . . داوود . . داوووود . . .

لم أكن قد سمعته من قبل يموء بهذا الشكل . .
كان يبدو اقرب إلى الصراخ أو العواء منه إلى المواء . .
سألته : ما هذه الضجة التي تحدثها . . ستستيقظ أمي وتطردك خارج البيت . .

سكت القط فظننت انه خاف من أمي ، ولكنه عاد يموء نفس العواء الغريب .

- داود . . داود . .

سألته : من تنادى

قال : داود . . الا تعرف داود . .

تذكرت ان داود هو النبي الذي كان يعرف منطق الطير والحيوان . . أى مأزق كان القط يمر به حتى ليحدث نبيا مات منذ آلاف السنين . . لم أعرف لطفولتي محنة القط . . سألته مشفقا . .
- لماذا تموء هذا المواء . . هل انت محموم

قال القط : نعم . .

قلت له : بعد الشر . .

قال القط : لا شر هناك . . هي حمى الحب . .

عاد القط يموء بصوت ايقظ الجيران وأيقظ أمي . .

قالت أمي : افتح الباب للقط ودعه يخرج . .

قاومت في البداية . .

سيضيع لو خرج . . من يدري اى هلاك ينتظره من مفاجآت الحياة .

كنت أريد ان احتفظ بالقط فى الجزيرة الوادعة التى نعيش عليها معا . .

لكن القط كان يطيع نداء أمرا أسرا لا يستطيع مقاومته . . انفتح الباب نصف فتحة . .

اندفع القط كالسهم مارقا نحو الخارج . .

صرخت عليه : لماذا تذهب . .

التفت قبل ان يمضى وقال : لن تفهم الآن . . ربما فهمت عندما تكبر . .

عدت أقول له : اين تذهب . .

قال القط : انصت قليلا واستمع . . هل تسمع هذا النداء . .

اننى مدفوع لتبليته . . ليس الامر بيدي . .

قلت للقط : اى نداء . . توقف وحدثنى . .

لم يلتفت . .

لم يعبا . .

كان يهبط السلالم بسرعة تشبه الطيران . . وجريت نحو غرفتى ودخلت الشرقة . .

صبح ماتوقعته . .

كانت القطة البيضاء النحيلة تنتظره فى الخرابة ، لم يكد يظهر حتى اندفعت هاربة منه فانطلق يعدو وراءها . وغابا معا فى ظلام البيوت . .

.....

اوجعنى قلبى عليه

ثم شاهدته بعد ستة أشهر وقد جلس متسلطنا فى الخرابه فوق
تل من الصناديق الفارغه ، وتحت صندوق من الصناديق كانت زوجته
البيضاء النحيلة ترقد فى وداعة وهى ترضع ست قطيطات صغيرة
مازالت مغمضة العينين . .

وكان القط هزيلا قد مرمطه الايام ، ولكن نظرة من الرضا
الجميل كانت تطل من عينيه وهو يلحس يده ويسوى بها شواربه . .
كان واضحاً انه قد صار زعيما للخرابه وبسط سيادته عليها
ناديته باسمه فلم يلتفت . . اكتفى بثنى اذنه نحو مصدر
الصوت . . ورحت أفكر فى اسمه السرى الخاص . . لو كنت أعرفه
لناديته به . .

وربما كان يلتفت . .

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٥ / ٥٨٢٠

مطابع الاهرام التجارية القاهرة - مصر

العبارة الشائعة عن القطط أنها حيوانات خائنة وغادرة وأذكر أنني
سالت قطتي يوما عن حقيقة هذه العبارة فقالت - بلغتها الخاصة .

□ اطلق جنس الكلاب علينا هذه الشائعة .. لاتخون القطط الا اذا
جاعت .. ولا تغدر الا اذا أحست بالخوف وانعدام الأمان ..

.....

لعل شك القارىء في جنون الكاتب يزداد تأكدا ..
مهلا ياسيدى ، ولاتكن كزوجتى التى تحتقر القطط لأنها حيوان .. لو أنك
مكتهل التجارب مثلى لعرفت أن العبرة في الخلق ليست بكبر حجمه وعظم
جرمه ، ولا بكونه انسانا أو حيوانا .. ورب انسان تنزل به تصرفاته الى
مستوى أقل من مستوى الحجارة .. ورب حيوان صغير يرفعه تواضعه الى
النجوم ..

لاتحتقر احدا لأن الله اختار أن يخلقه حيوانا ..
تعلم ان تتعلم من خلق الله ..
ان الصورة ليست الا ظلا .. ولا يعلم حقيقة الكنه والمعنى سوى الله ..
تواضع في نفسك واقرا كلماتي عن القطط .. واذا راودك شك في جنونى لأننى
اكتب عن القطط .. فأنت ياسيدى أشد جنونا لأنك تقرا ما أكتب .

أحمد بهجت

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع في الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

القاهرة - مصر

٩٩/١٠٢
توزيع الأهرام
جنية ٢,٠٠

stx.
2.736
514h
C.3

0522021